خالد زيادة

بوابات المدينة والسور الوهمي



خـالد زيـادة

بَوّاباتُ المدينة وَالسُّورالوهمي



دار النهـار

إلى
أخي
معن

الطبعة الأولى، ١٩٩٧
الطبعة الثانية، أيار ٢٠٠٨
ص. ب: ٢٢٦ ـ ١١، بيروت ـ لبنان
فاكس: ٥٦١٦٩٣ ـ ١ ـ ٩٦١
صورة الغلاف: مدرسة جامع البرطاسي (عن The Architecture Of The Mamluk City Of Tripoli)
darannahar@darannahar.com
ISBN 978-9953-74-195-6

مكتبة الجمعية الأهلية



I

في زيارتي لقاعة المكتبة التابعة لجمعيّة الثقافة الأهلية، سألني الموظّف المسؤول الذي كان وحيداً في القاعة الرحبة في تلك الصبيحة، إذا كانت هذه هي المرّة الأولى التي أزور فيها المكتبة، فذكرت له أنني جئت في مناسبات مختلفة خلال السنوات الماضية، فقال لي كأنه يعتذر: «إن أشخاصاً عديدين يأتون إلى هذه القاعة، فلا أقدر أن أتذكّرهم جميعاً». ثم سألني مستوضحاً: «لست عضواً في الجمعيّة على أيّ حال؟». ففهمت أنه يُريد معرفة سبب حضوري، فقلت له: «إنني لست عضواً في الجمعية ولكنني أتيت للقاء الأستاذ ابراهيم شيبان». فنظر إليّ نظرة من يريد أن يتأكّد، ثم قال: «إنك، ولا شكّ، ترغب في فنجان من القهوة». ونهض لتوّه مضيفاً: «لن يستغرق الأمر سوى بضع دقائق».

خلال غيابه الذي استغرق بعض الوقت، بدون أن أتنبّه لمضيه، كنت أتأمّل القاعة المرتفعة الجدران المغطّاة برفوف تعلوها الكتب، والتي تفصلها النوافذ المغلقة عن ضجيج الشارع الذي تصل، مع ذلك، بعض أصدائه. ولاحظت

أن اتّساع القاعة والنور الضئيل في داخلها هما اللذان يصنعان هدوءها المصطنع. كانت قاعة المكتبة تحتلّ الطابق الثاني من المبنى الذي تستقلّ به جمعيّة الثقافة الأهلية. وفكّرت في نفسي: كم هو عدد الأشخاص الذين يأتون للجلوس حول الطاولة الوحيدة التي تحيط بها عشرة مقاعد معدّة للقرّاء؟ وتخيّلتُ أنها لا بدّ ستضيق بعشرة أشخاص، بل بأقلّ من هذا العدد، لأن أي حركة سيقوم بها أحد الجالسين ستقطع على الآخرين قراءتهم وتركيزهم. كانت الطاولة المستطيلة خالية، مثل القاعة التي تبدو فارغة بالرغم من الكتب الكثيرة التي تغطّي الجدران، ما عدا الموازي للشارع الرئيسي، والذي ينبعث منه الضجيج، وبخاصةً في ساعات الصباح، ولا يهدأ إلا قبيل المساء. تساءلت: من الذي يغذّي المكتبة بالمؤلّفات والكتب الجديدة؟ وقلتُ: لا بدّ أن هناك لجنة تهتمّ بذلك. فلا يمكن لشخص واحد أن يتولّى هذا الأمر. لكنني تنبّهت إلى أن القيّمين على شؤون الجمعيّة ومكتبتها لا يفكّرون بالطريقة نفسها التي أفكّر بها، وهم أدرى منّي بأمورهم على أي حال، وقد اكتسبوا خبرة في الشؤون التي يتولّونها. ورجّحت في غمرة استرسالي، أنهم لا يهتمّون الآن بشأن الكتب كاهتمامهم بجمعها في ما مضى من السنوات. فالرفوف الخشبيّة، والكتب التي صُفّت فوقها تبدو لي كما تركتها منذ سنة، حين جئت أبحث عن كتاب لم أجده. وكما عرفتها منذ أتيت للمرّة الأولى قبل بضع سنوات. فمن المحتمل أنّهم ما عادوا يهتمّون باقتناء الكتب الجديدة كأنّهم يجدون ما لديهم كافياً.

قمت استطلع الكتب فوق الرفوف الخشبيّة، في الوقت الذي حضر فيه أحد الأشخاص وجلس على مقعد أمام

الطاولة يقرأ جريدته التي أحضرها معه. ورجعت بعد دقائق، إذ عاد الموظّف يحمل فناجين من القهوة. وأثناء انشغاله بصبّها قال: «إن عدد الذين يثابرون على الحضور إلى المكتبة قليل، ولكن العابرين الذين يأتون للبحث عن كتاب فهم أكثر». وذكر لي بعض الزوّار الدائمين، فلم أعرف منهم أحداً، ولمح إلى أن بينهم من يأتي لتمضية الوقت، وأن آخرين يأتون بناء على مواعيد، خصوصاً حين يحضر شاب للقاء صديقته، بعد أن ضاقت بهما المدينة فلم يجدا مكاناً يلتقيان فيه بعيداً عن الأعين غير هذه القاعة. كان يبتسم خلال كلامه الأقرب إلى عبارات تفصل بينها لحظات من السكون. نظر إليّ بعد أن قدّم لي قهوتي فيما شرع في إشعال سيكارة، وقال: «إنني أعمل في هذه المكتبة منذ كانت في مقرّها القديم. كان عدد القرّاء والمهتمّين أكبر في ما مضى، لكن الكتب أكثر من القرّاء على أيّ حال».

بدت لي قاعة المكتبة التي تشغل الطابق الثاني من مبنى الجمعية مكاناً رتيباً، يزيد في كآبته النور المنخفض والأثاث الذي يذكّر بمرور السنوات، كأن كلّ شيء بقي في مكانه كما رتّب في المرّة الأولى. إنها أكثر كآبة من كل دور الكتب التي أعرفها. ووجدتني أنساق إلى مقارنتها بالموظّف نفسه، فوجدت شبهاً غامضاً بينهما لم أستطع تبيانه، وتساءلت، فيما كان يتابع حديثه المتقطّع: هل يمكن للناس أن يشبهوا الأمكنة التي يرتادونها؟ أو أن ينتسب إلى قاعة أو مبنى كما ينتسب إلى عائلة أو مدينة، وهل تقوم قرابة بين الكائن والمكان مثل القرابة بين أفراد عائلة؟ وفكّرت، في غمرة الخواطر التي تداعت في ذهني، أن الموظّف وقاعته منسيّان ومتروكان، مثل الكتب الكثيرة المهملة والتي لم

يمسّها أحد منذ أن وجدت أمكنتها الأبدية فوق الرفوف. كتب كثيرة جُلّدت بعناية حتى لا تتلف أغلفتها من شدّة الاستخدام، كما حسبوا حين جمعوها أوّل مرّة. جمعوها بحماس من يخطّط لأمر خطير ويعمل من أجل أجيال آتية. لكنهم نسوا ما خطّطوا له وقد شغلتهم شؤون الحياة، ففتر الحماس بمرور الزمن. كان جمع الكتب في أوّل عهد الجمعيّة، يتناسب مع الهدف الذي رسمته لنفسها في زمن الآمال الكبيرة، فكتبوا في البيان العلني الأوّل الذي أصدروه: «جيل جديد يعرف تراثه وثقافته». عبارة، كما قيل لي، من عبارات كامل محرّم، الذي عمل مع رفاقه وتلامذته على تأسيس هذه الجمعيّة قبل ما يزيد على أربعين سنة. في ذلك الزمن الذي كانوا يظنّون فيه أن للكلمات قوّة إشعال الحماس، وأن المعرفة كامنة في صفحات الكتب، وأن مفرداتهم ستغيّر العالم، وأن الكتب يمكنها أن تبني هرماً يرقى إلى سماء التقدّم. في ذلك الزمن المشغول بالرموز، كانوا مأخوذين بالكنايات، فكانت الجمعية كناية عن الجيل الجديد، والمدينة كناية عن الأمّة المترامية.

جعلوا، في أوّل الأمر، من إحدى غرف المعهد العلمي العربي، مقرّاً لهم بفضل كامل محرّم، الأستاذ في الكلّية وصاحب النفوذ فيها. فرضخت الإدارة للتيّار الذي مثّلته الجمعية عند تأسيسها. كانوا يعقدون اجتماعاتهم في تلك الغرفة تحت ستار النشاط الطلاّبي، فيكتبون البيانات ويحضّرون للتظاهرات الكثيرة في نهاية عهد الانتداب وعلى امتداد الأربعينات. وفي زمن النكبة جاهروا بنشاطاتهم ونزلوا إلى شوارع المدينة ليجمعوا التبرّعات ويستقبلوا النازحين ورفعوا أوّل يافطاتهم العلنية. استمرّوا

على هذا النحو بضع سنوات، حتى أمكنهم استئجار غرفتين في زقاق الطويل بالقرب من مدرسة حسن أوغلو عند تخوم المدينة القديمة، فخرج نشاط الجمعية من أسوار المعهد العلمي إلى أرجاء المدينة، بعد أن تخرّج مؤسّسها وازداد عدد المنتسبين إليها. وبعد عشر سنوات نقلوا مقرّ جمعيّتهم إلى هذا الشارع المتفرّع من الساحة العامّة التي كانت في وسط الخمسينات نقطة الارتكاز في حياة المدينة ونشاطاتها العصرية. فاشتروا هذا المبنى المستقلّ بطابقيه، وكانوا يريدون للجمعية ومكتبتها أن تصبحا منارة الساحة والمدينة، كما كان يقول كامل محرّم، الذي استمرّ في رئاستها أربعين سنة خلال ثلاثة أطوار من عمرها.

كل شيء بدأ في المعهد العلمي العربي الذي أسّسه في أوّل القرن الشيخ عمر الخطيب، ومدّه بالمال والدعم السرّي عبدالمجيد الأحمدي، وسجّل ابنه مصطفى طالباً فيه ليتشبّه به سائر الوجهاء، وبعد رحيل العثمانيين صار المعهد العربي مدرسة لجلّ أبناء المدينة من جميع فئاتهم وطبقاتهم، وخصوصاً عند إخراج الأثرياء أبناءهم من المدارس الإرسالية بعد دخول الفرنسيين، فصار المعهد مجتمع المدينة المصغّر وعلامة وحدتها. ويقال إن كامل محرّم كان أستاذاً لمصطفى الأشرفي، حفيد عضو مجلس الإدارة زمن العثمانيين والذي ورث الزعامة عن والده في ما بعد. وتخرّج من بين يديه العديد من الذين نبهوا، وصاروا نخبة رجال المدينة. لكن المعروف أن أبرز أعضاء الجمعيّة الأوائل كانوا رأفت السعدي وعبدالله المقدسي وابراهيم شيبان الذي جئت اليوم لمقابلته. ويقال إن مصطفى الأشرفي قد رافق الجمعية في أوّل عهدها، وكذلك أمين سريّ الدين وهشام

درويش. طلاّب من جميع فئات المجتمع، منهم أبناء السادة ومنهم أبناء البسطاء والفقراء والوافدون من الأرياف الذين انتسبوا إلى المدينة فصاروا كأبنائها بعد أن غابت عنهم ملامح أصولهم الأولى.

في طورها الأوّل، كانت أقرب الى أن تكون جمعية طالبية على رأسها الأستاذ الشاب كامل محرّم الذي قرأ، وكان لا يزال على مقاعد الدراسة، كتاب «حاضر العالم الإسلامي». ثم تحوّل إلى مؤلّفات ساطع الحصري فصارت «مفردات الأمة والتاريخ والوحدة» تتخلّل كل أحاديثه.

لكن، من دون ريب، فإنه كان قد ورث العروبة عن والده الذي يُقال إنه كان من رجال فيصل الأوّل. ومهما يكن من أمر فإن كامل محرّم حين باشر جمع أتباعه مع مطلع الأربعينات، كانت أفكاره قد تكوّنت وشهرته كخطيب لامع قد تكرّست. وكان رأفت السعدي أقرب تلامذته إليه، وهو الذي صار مدرّساً في الكلّية العلمية بعد تخرّجه، وكان يُعتبر الثاني في الدور والأهمّية بعد الأستاذ، وإليه يعود الفضل في تنظيم إدارة الجمعية وماليّتها، وتحقيق الوفر الذي سمح لها بالانتقال إلى المبنى في زقاق الطويل.

وفي تلك المدّة حتى أواسط الخمسينات كانت الجمعية لا تزال أمينة لماضيها وأقرب إلى أن تكون منظّمة للشباب.

وكان السعدي عنوان تلك المرحلة، لكنه توفّي بعد مرض مفاجئ، فبرز في الطور الثاني عبدالله المقدسي، وكانت الجمعية قد بلغت سنّ النضج ومنعطف الاختيارات الصعبة. وكان المقدسي، الذي يقول إن جدّه قد وفد إلى المدينة قادماً من القدس، يريد للجمعية أن تتحوّل حزباً سياسيّاً. فاختلف مع أستاذه القديم الذي أراد للجمعية أن

تبقى إطاراً جامعاً وعنوان وحدة المدينة، فترك المقدسي المدينة مهاجراً إلى أميركا ولم يعد. وفي تلك الفترة أو بعدها بقليل، ترك الجمعية هشام درويش وآخرون. ومع نهاية الستّينات بدأ نجم إبراهيم شيبان يصعد ببطء شديد، وبقي، إلى جانب أستاذه، نائباً له في رئاسة الجمعية، حتى تخلّى له عن الرئاسة قبل ست سنوات عند بلوغه السبعين.

فورث المبنى دون أعضاءالجمعية الذين تبعثروا، فلم يبق منهم سوى عدد قليل.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف حين أطلّ وليد مالك فبادرني قائلاً: «لا بدّ أنك وصلت مبكراً!». ثم سألني بعد أن انضمّ إلينا: «هل شربت القهوة؟». فأجابه الموظّف: «لقد قمنا بالواجب». وقد قال لي حينها على سبيل التطمين: «لن يتأخّر بالوصول».

لم أكن قد سألت وليد مالك كيف صار عضواً في الجمعية، فلا هو من ذلك الجيل المؤسّس ولا من طلاّب المعهد العلمي وخرّيجيه. فقد كان زميل دراستي حين كنّا في المرحلة الابتدائية في الحدّادين قبل انتقالنا إلى الثانوية الرسمية، لكنني لم أكن أستغرب أن يكون عضواً في الجمعية، فهو أشبه بطلاّبها الذين ترتسم على وجوههم سمات المدينة. وعادة ما كنت أبحث، دون جدوى، عن تلك الملامح المشتركة التي تجعلني أتعرّف إلى خرّيجي المعهد العلمي حتى لو التقيت بهم لمرّة واحدة. وكان وليد مالك، بالرغم من طبعه الحذر، يعرف عدداً كبيراً من الناس، حتى حسبته يعرف أهل المدينة فرداً فرداً، ولطالما سخر من جهلي أبجدية العائلات، أنا الذي كنت أجهل أن أمين سريّ الدين هو حفيد عبّاس سريّ الدين، وأن سعيد التيّان هو حفيد

الشيخ عبد الرحمن المسيري.

ووليد مالك هو الذي رتّب لقائي بابراهيم شيبان، رئيس الجمعية، وقال لي: «لا عليك أن تستمر في عزلتك بين الكتب، فهم يحتاجون إلى خبرتك». ولا أنكر أنه قد أثّر بي بطرق مختلفة، فاهتمامي بتاريخ المدينة ربّما أعزوه، بطريقة ما، إليه، هو الذي كان ينعي عليّ قراءتي المطوّلات في التاريخ وعفّتي عن تاريخ مدينتي.

وصل إبراهيم شيبان، فهرع الموظّف إلى استقباله. واعتذر، بعد المصافحة وكلمات الترحيب، عن تأخّره الذي لم يتجاوز الدقائق المعدودة. كان رجلاً منظّماً، وطالما اشتهر بحساباته الدقيقة. ويقال إنه لولا حساباته، لما استطاع أن يصل إلى هذا المنصب، لكن هشام درويش قال لي في ما بعد إنّه لم يصل لو كان ثمّة منافس جدّي. وفي جميع الأحوال، فإن إبراهيم شيبان، ابن العائلة المتوسّطة وتلميذ كامل محرّم القديم، صمد واقفاً إلى جانب أستاذه، ينتظر الوصول إلى رئاسة الجمعية، ولعلّه وصل متأخّراً حين لم يعد لهذا المنصب أهمّيته أو جدواه، ولكنه يسعى جهده من أجل أن يبثّ الروح في الجمعية وفي مبناها.

دعانا إبراهيم شيبان إلى قاعة الاجتماعات، فدخلناها تباعاً، وكان الموظّف قد فتح بابها المغلق قبل قليل، وبدت لي من الداخل كأنها لا تستخدم إلا في مناسبات نادرة. فكلّ ما فيها قد استقرّ في مكانه منذ زمن طويل، ولم تكن تشبه أي قاعة أعرفها، خصوصاً أنها بدون نوافذ سوى الباب الذي دخلناها عبره.

انتقل إبراهيم شيبان من عبارات المجاملة والترحيب إلى الموضوع الذي من أجله كان لقاؤنا، وقال: «لا أذيع سرّاً

بأن الجمعيّة تعاني من أزمة، فقد غابت عن دورها منذ بعض الوقت، علماً أنها كانت محور النشاطات في المدينة في فترة ازدهارها. وأرى أن أزمتها تعكس حال المدينة برمّتها، ولهذا أردت هذا الاجتماع من أجل البدء بمشروع يكون موضوعه «تاريخ المدينة»، نعدّ له خلال الأشهر المقبلة ونعلنه في مهرجان تكريمي نقيمه للأستاذ كامل محرّم في مطلع الخريف المقبل بمناسبة مرور خمس وأربعين سنة على انطلاق الجمعية حين أصدرت أوّل بيان لها». وأضاف: «إن الهيئة التنفيذية للجمعية تتمنّى أن تشاركنا في هذا المشروع وأن تمدّنا ببعض الأفكار».

شعرت بأن وليد مالك قد وضعني في موقف حرج، وحاولت أن أوضح لابراهيم شيبان أنني لا أملك الخبرة التي يظنّها بي، ولكنه حسم الأمر قائلاً: «سنترافق الأسبوع المقبل في زيارة للأستاذ كامل محرّم لنعلمه بمشروعنا». فقلت في نفسي: بعد هذا التاريخ الطويل، يستحقّ الأمر عناء الزيارة.

II

لم أتحقّق إلى أي وقت يعود ترتيبهم للكتب على النحو الذي جعلوها فيه ثلاثة أقسام، لعلّ الأمر حدث عند انتقالهم من المبنى القديم إلى هذا المبنى قبل ربع قرن من الزمن. وقد أخضعوا ذلك لمنطق أدركته بعد أن أمضيت ساعة أتفحّص فيها ما تحتويه الواجهات الثلاث الموزّعة على ثلاثة جدران. في الواجهة الأولى وضعوا الكتب-الأمّهات، ولعلّها الكتب الأولى التي فكّروا

باقتنائها، وتعود إلى المرحلة الأولى من عمر الجمعية، مرحلة الأمّة، فكّروا آنذاك بالتواريخ الكبرى، من الطبري إلى ابن خلدون، وضمّوا إليها «الأغاني» و«دواوين شعراء العرب» و«المجاني». وكان ثمّة نسختان من «ألف ليلة وليلة» ومعاجم لغوية بينها «لسان العرب» و«تاج العروس». و«الفهرست» لابن النديم و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، بالإضافة إلى «كليلة ودمنة»، و«البخلاء» للجاحظ، ومؤلّفات للتوحيدي وابن فضلان. وكتب عن النقود والمسكوكات ومعاجم البلدان ونسخة من «الخراج» لأبي يوسف، وبضع دراسات عن الحضارة العربية بينها واحدة من غوستاف لوبون وأخرى من سيديو.

في الواجهة الثانية وضعوا الكتب التي تنتمي إلى النهضة، ويتصدّرها «حاضر العالم الإسلامي»، و«تاريخ غزوات العرب»، و«طبائع الاستبداد» و«أمّ القرى»، و«الردّ على الدهريين» و«العروة الوثقى» ومجموعة «المنار»، وكتب لقاسم أمين وطه حسين وسلامة موسى والعقّاد وجبران، و«من أين نبدأ»، ومؤلّفات لساطع الحصري والأرسوزي، و«أعمدة الحكمة السبعة» للورنس، و«معنى النكبة» و«حرب القنال» و«بطل من بلادي».

وضمّت الواجهة الثالثة منوّعات من آداب عالمية، ترجمات لبرنارد شو وهـ.ج. ويلز، و«تدهور الحضارة الغربية» لشبنغلر و«تاريخ الحرب العالمية الثانية»، وكتب أخرى في الاشتراكية والقومية. وضمّت هذه الواجهة دراسات في الاقتصاد والتاريخ، وبضع رسائل من إعداد طلاّب أنهوا دراساتهم، وبعض كتب ألّفها بعض أبناء المدينة، وبعض كتب الأدب والروايات.

لم أعثر على ما يفيد في تاريخ المدينة في هذا الخضمّ، الذي يصغر فيه تاريخ المدن، ولم تكن المدينة في تلك الفترات التي كانوا يجمعون فيها الكتب لتحتلّ مكاناً في أفكارهم. كانت نقطة في المدى الواسع للأمّة، وكان علمها شأن لا يذكر في بحر العلوم الذي لا يُحصى. وفكّرت أنني ربّما أستطيع أن أستخرج بعض المعلومات من كتب متفرّقة في الجدار الأوّل؛ صفحات من العمري وأخرى من القلقشندي ومعلومات من تاريخ سوريا، أو تراجم عن رجال من أهل المدينة أستمدّها من بعض كتب الأعيان. أما في الجدار الثاني، فتيقّنت أنني لن أعثر على أيّ شيء يفيدني في هذا التاريخ الذي لم يعره أحد اهتمامه، وكأن المدن لا تستحقّ أن توضع أخبارها بين الكتب التي تروي الأحداث البارزة والأفكار الكبرى. وقلت إن الواجهة الثالثة بعيدة عن أن تشتمل على كتاب يخصّ المدينة من قريب أو بعيد.

سألت الموظّف: «أليس في هذه المكتبة ما يخصّ من تاريخ المدينة واجتماعها ورجالها وآثارها وأخبارها؟».

فقال: «لقد طلب منّي الأستاذ كامل محرّم أن أجمع كل ما يخصّ تاريخ المدينة وأحفظه في القاعة الداخلية التي تعقد فيها الاجتماعات. وهي بضع دراسات ورسائل، بينها بعض الكتب التي ألّفت في مراحل متباعدة».

دخلت معه إلى القاعة التي عقدنا فيها الاجتماع مع إبراهيم شيبان، وفتح خزانة خشبية، فرأيت مجموعة من الكتب، واستأذنته أن أتصفّحها، فقال: «سأتركك معها ما شئت من الوقت».

كانت مجموعة من كتب محدودة العدد بينها كتاب:

«مجمل تاريخ المدينة عبر حقب التاريخ»، لصاحبه عصمت السيّد، أستاذ الأدب في المدرسة السلطانية. ويشبهه كتاب ألّفه الشيخ أحمد الوتّار عنوانه «ذكريات مدينة»، وآخر بعنوان «ما ذكره أصحاب المعاجم عن المدينة». ولفت انتباهي كتاب «حكايات من الحارات القديمة»، لكن أملي خاب بعد تصفّحه، فليس فيه سوى المعروف من عادات أهل المدينة في المناسبات المشهورة ويدخل في نوعه كتاب «أمثال أهل البلد»، وهو كتيّب صغير الحجم يذكر ما مجموعه ٣٦٠ مثلاً جمعها صاحبها من ألسنة المعمّرين. وكان ثمّة مجموعة من الرسائل الجامعية المنسوخة على آلة طابعة، مثل: «شعراء المدينة في القرن الماضي»، و«الحياة الثقافية في نصف القرن العشرين»، وأخرى عن الإرساليّات الأجنبية وجدت أنها قد تحمل بعض الفائدة، بالإضافة إلى رسائل في التاريخ مثل «المدينة في عهد الكونتيّة الصليبية»، و«دولة المدينة في العهد الفاطمي»، و«رسالة في آثار المدينة المملوكية».

وقلت في نفسي إنها حصيلة ضئيلة لا تسهّل المهمّة أبداً.

غرفة المحفوظات في المحكمة

I

لم تكن المسافة من الساحة العامّة إلى جادّة السرايا لتستغرق أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام. وقد اعتدت أن أسلك هذه الطريق خلال الأشهر السابقة بمعدّل مرّتين في الأسبوع. ويوم الثلاثاء الذي أعقب لقائي مع ابراهيم شيبان، في الطريق إلى مبنى المحكمة، فكّرت في تلك الأطوار الثلاثة التي كانت المباني تنتقل خلالها من موقع إلى آخر. كان مبنى المحكمة الذي استقرّ في جادّة السرايا، قد تبدّل ثلاث مرّات، فقد بقي المدّة الأطول في الموقع القديم داخل المدينة غير بعيد عن السوق. هناك عاشت عصرها الذهبي حين كان قاضيها موضع أنظار أهل المدينة. وانتقل المبنى إلى الساحة العامّة في عصر التنظيمات حيث أقامت ستة أو سبعة عقود، وكان قضاة المحكمة محطّ تجاذب بين التقاليد التي درجت عليها والتحديثات التي كانت تأتيها من اسطنبول، وانقسم رجالها بين اتّجاهات العصر وتيّاراته. أما في الطور الأخير، فقد أقامت المحكمة في هذا المبنى الذي لا يوحي طرازه بعمرها المديد الذي تتقاسمه العصور

المتعاقبة. ومع ذلك فإنني لا أزال أتساءل كيف أمكن للمحكمة أن تحتفظ بوثائقها التي حملتها خلال ثلاثة قرون من الزمن من مبنى إلى آخر، فينتابني، كلّما خطرت على بالي الخواطر، الشعور بالتعاطف مع أولئك القضاة والكتّاب الذين تعاقبوا على تدوين القضايا سنة بعد أخرى وجيلاً بعد جيل، وحرصوا على حفظها والاعتناء بها. لم أكن لأعجب من وقوع هذه السجلاّت طيّ النسيان أو الضياع بقدر دهشتي من النزعة التي لا تقاوم في حفظ الشاهد الوحيد على حياة مدينة تواصل تقاليدها وعيشها.

في المدخل المفضي إلى الباحة الداخلية، تذكّرت المرّة الأولى التي حضرت فيها إلى المحكمة للاطّلاع على سجلاّتها؛ كان ثمّة عدد من الرجال والنساء، واحدة تحمل طفلاً ومعها سيّدة مسنّة تتكلّم بصوت مسموع غير آبهة بالأشخاص الذين يقفون كأنهم في حالة انتظار. مرّ محاميان عرفت صفتيهما من الرداء الأسود الذي يحمله كلّ منهما، ودخلا إحدى القاعات. ولبثت لحظات لا أعرف أين أتّجه، ثم دخلت الغرفة التي دخلاها، كانا يكلّمان رجلاً يجلس خلف طاولة خمّنتُ أنه أحد الموظّفين، وانتظرت حتى فرغا من حديثهما معه، فتقدّمت لأسأله عن القاضي، فاستغرب سؤالي، وسألني بدوره من أكون، فعرّفت بنفسي، فسألني عن غرضي، فأخبرته. فقال بدون أن يرفع نظره عن الأوراق فوق الطاولة: «إنتظر، سيأتي بعد قليل».

شغلتُ نفسي بقراءة بعض الأوراق المعلّقة على الحائط وفيها تبليغات وإعلانات وأمور أخرى صيغت بلغة القانون، في الوقت الذي كان عدد المنتظرين فيه يزداد، يدلّ

على ذلك الضجيج الآخذ بالارتفاع. ولم يطل انتظاري سوى دقائق، إذ وقف الموظّف الجالس خلف الطاولة حين دخل شيخ حسبته القاضي، فتبعه حاملاً بضعة ملفّات، وحينما رجع إليّ قال: «القاضي ينتظرك».

لم أكن قد حضّرتُ في ذهني العبارات التي أصيغ بها طلبي. وحين دخلتُ الغرفة بادرني القاضي: «تفضّل يا أستاذ»، وكان لا يزال يتطلّع في الملفّات التي أمامه، ثم صوّب نظره نحوي، وتنبّهت أنه يضع نظّارة سرعان ما رفعها. قلتُ: «أريد أن أطّلع على السجلاّت في محكمتكم». فابتسم وسألني: «هل تحضّر رسالة؟»، فأجبت بالنفي. قال: «أرجو أن يكون صبرك أطول من الذين جاءوا قبلك»، وتابع: «السجلاّت في قاعة المحفوظات، وعليك أن تذهب الى الكاتب خضر الصبّاغ، في الجهة المقابلة»، ثم نادى الموظّف وطلب منه أن يرافقني، فشكرته واستأذنت.

حين دخلت قاعة المحفوظات لاحظتُ أن النور يأتيها من نافذة تطلّ على حديقة خلفية صغيرة. وحين فتح الكاتب خضر الصبّاغ النافذة سرى تيّار هواء بارد. كان ثمّة طاولة وثلاثة كراس، بالإضافة الى خزانتين معدنيتين خُصّصتا لحفظ السجلاّت. ولم أكن أعرف من أين أبدأ، فشغلني لبرهة مشهد الشجرة الوحيدة التي تبدو من النافذة. ثم توجّهت صوب الخزانة التي حسبتها الأولى، لأنها أقرب الى جهة الطاولة، فوجدت أن السجلاّت، التي يفوق طول الواحد منها اي كتاب أعرفه، قد رقّمت ورتّبت وفق تسلسل أرقامها، إلا أن الترتيب أخلّ به بعض الذين يأتون بين الحين والآخر منقّبين عن وثيقة أو قضيّة أو وقفيّة.

أخرجتُ السجلّ الأول من موضعه وبدأت أتصفّحه محاولاً تكوين فكرة عن القضايا التي يتضمّنها، ووجدتُ صعوبةً في إكمال قراءة أية قضية بسبب الخطوط المتراصّة وتناثر النقاط أو انعدامها. ثم أرجعت السجلّ الى موضعه وأخرجت آخر، فلم أجد فرقاً سوى اختلاف الخطّ وازدياد تعقيده. وبالرغم من اليأس الطفيف الذي ساورني في زيارتي الأولى لقاعة المحفوظات، فقد ثابرت على الحضور في الأيام التالية، وبدأت أتلمّس بعض القضايا وبعض خصائص السجلاّت، فلاحظت اختلاط القضايا المنصوصة بالتركية بتلك العربية، وتداخل الفرمانات مع الدعاوى والوقفيّات. وكانت أغلب القضايا تحمل عناوين تعرّف بمضامينها. وأجريتُ إحصاءً أوّليّاً للسجلاّت فوجدتها تتجاوز المئة، موزّعة على ثلاثة قرون من الزمن، فشعرت بكثافة السنين، وقلتُ في نفسي: من الذي يستطيع الصمود في هذه القاعة؟

أمضيت الأيام اللاحقة أتردّد الى قاعة المحفوظات لأمضي ساعتين أو ثلاث ساعات في كل زيارة. وبعد مرور ثلاثة أسابيع، تمكّنت من الكشف على مفاتيح الخطوط، فصرتُ أقرأ القضايا بشيء من اليسر. وقد ساعدني الحاج خضر الصبّاغ على فكّ بعض التعقيدات اللغوية وطرق الكتابة وأنواع الخطوط. وفسّر لي أن لغة القضايا تقوم على جملة من المصطلحات والمفردات، في حال معرفتها، فإن القراءة تصبح سهلة. ولأغراض العمل كنتُ أحضر أوراقي التي أدوّن عليها ملاحظاتي، وأنسخ مقاطع من القضايا كنماذج أعود إليها لاحقاً. وقد مدّني الحاج خضر بمعجم فقهي يشرح المفردات الواردة في القضايا، وعثرت على

معجم تركي-عربي صادر عام ١٩١٢ عن مطبعة الولاية، استعنت به لمعرفة معاني المفردات التركية التي ترد في وسط النصوص العربية. وكان أكثر ما ساعدني، تقويم مقارن بين السنوات الهجرية والميلادية، وجدتُ نسخة منه في مكتبة يوسف الورّاق، المتخصّص ببيع الكتب القديمة.

لم أصادف في قاعة المحفوظات سوى العدد القليل من الزائرين، يعرف كل واحد منهم الحاج خضر الصبّاغ. بينهم طلاّب يحضّرون رسائل في التاريخ، كمازن الشيخ الذي كان ينهي أطروحة حول حكم إبراهيم باشا المصري. وقد تبادلت معه الرأي في بعض المسائل، لكن انشغاله لم يسمح لي بالتوسّع في النقاش معه. وبعضهم يبحث عن وقفيّات يخيب أملهم في العثور على مبتغاهم، فيسألون خضر الصبّاغ، الذي يطلب منهم التواريخ التقريبية وعادةً ما يعجزون عن تحديدها. ويأتي محامون من وقت الى آخر يفتّشون عن بعض القضايا. كان خضر الصبّاغ يعرف كل الذين يأتون الى قاعة المحفوظات ويعرف غاية كل واحد منهم. وقد أخبرني أن عدداً من الأساتذة أتوا من أوروبا خلال السنوات الماضية، وكان الواحد منهم يمضي فترة بين عدّة أسابيع وثلاثة أشهر، فلا يضيّع دقيقة خلال عمله الذي يبدأ مع فتح القاعة وينتهي مع إغلاقها. وحين سألته عن معرفته بالسجلاّت، قال لي إن قراءتها جزء من عمله لأن القاضي يكلّفه بالبحث عن بعض القضايا بين وقت وآخر، وأخبرني أن حسن البدوي، الموظّف الذي سبقه في هذا العمل، هو الذي درّبه على قراءة الوثائق، ولا يوجد في المدينة من يعرف بأحوال السجلاّت وأخبارها وأسرارها مثله. وحين سألته عنه، قال لي: «إنه أمضى مع السجلاّت

أربعين عاماً ولكنه تقاعد منذ سنوات طويلة وقد تجاوز الثمانين، وقد شحّ نظره لكنه ما زال يحفظ التفاصيل ولا يفوته واحد منها».

حين وصلت في تلك الصبيحة الى قاعة المحفوظات وجدت أن شخصاً مسنّاً قد سبقني بالوصول، ورأيته منهمكاً في تصفّح أحد السجلاّت، فلم يتنبّه لحضوري. وشعرتُ ببعض الارتباك إذ كان يشغل الطاولة التي حسبتها خاصّتي. وزاد في ارتباكي أن الحاج خضر كان غائباً عن القاعة في تلك اللحظة. كان الرجل المسنّ مشغولاً بتدوين بعض الكلمات في ورقة صغيرة، دسّها في جيبه بعد أن أغلق السجل وتطلّع نحوي وسألني: «ماذا تفعل هنا؟»، ثم قال دون أن ينتظر إجابتي: «لن أجعل انتظارك يطول، عليك أن تصبر بضع دقائق». فوقفت حذراً لا أعرف ماذا أفعل، بينما حمل السجلّ وأعاده الى مكانه وأخرج سجلاً آخر. وبدأ يقلب صفحاته، وتوقّف عند إحداها فأخرج الورقة من جيبه وكتب عليها بضع كلمات. في هذا الوقت دخل الحاج خضر يحمل فنجاناً من الشاي للرجل المسنّ وقال: «تفضّل يا شيخ حسن»، فأخذ الفنجان بين يديه وسألني: «هل تحضّر رسالة أم تبحث عن إرث؟»، فتدخّل الحاج خضر قائلاً: «الاستاذ يشتغل على السجلاّت لكنه لا يفصح عن غرضه». وعاد الرجل المسنّ الذي عرفت أنه حسن البدوي ليسألني: «منذ متى تحضر الى هنا؟»، فتكفّل الحاج خضر مرّة أخرى بالإجابة: «منذ ثلاثة أو أربعة أشهر». فنظر حسن البدوي في وجهي متأمّلاً وقال: «إنك قليل الكلام وهذا أمر جيّد لمن يطّلع على قضايا الناس وأسرارهم ومشاكلهم». وأضاف: «أعرف هذه السجلاّت

منذ أكثر من خمسين سنة حتى حفظتها، ومع ذلك فإنني أجهل الكثير من أسرارها، وكلّما أتيت الى هنا أكتشف شيئاً جديداً، وقد بردت همّتي وشحّ نظري، فلم أعد أجيء إلا في أوقات نادرة لأتأكّد من قضية أو وقفية؛ إذا كنتَ تريد أن تعرف شيئاً من أخبار المدينة ورجالها وعائلاتها، فيمكنك أن تسأل عنّي في مقهى الزجاج في ساحة الخاتونية، فستجدني بعد ظهر كل يوم». وخرج متعجلاً عجلةً لا تناسب ما يحمله من سنين.

II

لم تكن الوثائق التي تتضمّنها السجلاّت موادّ للتاريخ فحسب، بل كانت أشبه بمذكّرات مدينة دوّنها كاتب يملك حشرية لا تقاوم، ونظرة ثاقبة الى الناس ومعرفة أحوالهم ووقائعهم. وخلف الوقائع والأخبار فإن الوثائق تروي أخبار الناس في يوميّاتهم، بسطائهم وكبارهم، السادة والعبيد، الحاكمين والمحكومين، التجّار والحرفيين، العلماء والوجهاء ومشايخ الحارات ومشايخ الطوائف. وتروي بحبر واحد أخبار الولاة الى جانب القاصرين واليتامى وأخبار الملتزمين الى جانب صغار العامّة. ويجدر بقارئ الوثائق أن يملك فضولاً يعادل فضول كاتبها، وحبراً يضاهي حبره ويزيد، ليتمكّن من متابعة أخبار الناس ومصائرهم وأماكن سكنهم وثرواتهم. فقد صرتُ أعرف السادة والعبيد والتجّار وما يملكون، والسفن المبحرة والغارقة، وقناصل الدول، بل تعرّفت الى نساء قادرات وغيرهن من الماكرات، ومشاكل الزوجات مع الأزواج، ورجال التقوى ورجال

السوء، والعلماء من خطباء وقرّاء ومدرّسين ووعّاظ وأئمّة، وخلافات الإخوة والأشقّاء، وأتباع الحكّام والملتزمين وأدواتهم من المحاسبين وشركائهم من التجّار، والمحجّبات والسافرات والمحصّنات والزانيات، والأموات واختلاف الأحياء على تركاتهم.

بل أن السجلاّت بدت لي أشبه برواية لا تنتهي، تكتنفها الوقائع الغريبة والنكات الطريفة، حيث نتعقّب مصائر الشخصيّات الرئيسية في خضمّ لا ينتهي من الشخصيات الثانوية العابرة التي تصنع حيوية مدينة تستيقظ في الصباح بعد الأذان، وتأوي في أول الظلام. فلا يبقى في أسواقها ودروبها سوى الأشقياء ومن يراقبونها من الشوربجية والعسس الذين يحرسونها ويقبضون على المتسكّعين والمجرمين.

لكن كاتب المحكمة الذي يدوّن هذه السيرة، وينسج، يوماً بعد يوم، هذه الرواية التي لا تنتهي، لا يقوى على الاستمرار في الكتابة فيترك الأمر لمن يرثه في عمله ويحتلّ وظيفته. أجيال من الكتّاب دوّنوا الأحكام والقضايا التي ينطق بها الحكّام والقضاة، وسجّلوا الفرمانات والمراسيم الواردة من عاصمة الدولة، واعتنوا بتخطيط الحجج الشريفة والمراسلات.

ومسرح هذه الرواية هو مقرّ المحكمة، فكل قضية تبتدئ بتحديد الموقع الذي هو: «مجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف أجلّه الله تعالى، قرّر متولّيه مولانا وسيدنا المولى الحاكم الشرعي الموقع خطّه الكريم أعلاه». فيقرّر وظيفة أو يصدر حكماً أو يثبت وقفاً. هكذا كانت تتعاقب القضايا لترتسم ملامح الأشخاص وخطط المدينة وأزقّتها

عبر قضايا البيع والشراء والإقرار والإثبات والنفقة والوصيّة والطلاق والزواج. وبدت لي المدينة أشبه بدولة يحكمها السادة الغرباء الذين لا يتكلّمون لغتها، هم وجنودهم وحرّاسهم. في تلك اللحظة التي تبتدئ معها السجلاّت، كانت المدينة تلتقط أنفاسها فتعيد ترتيب أمورها وتنظّم أوقافها وتوزّع المراتب وترفع الوجهاء وتنصّب العلماء، كان المفتي هو الشخص الأبرز بين الأهالي، تقوم بينه وبين الحاكم الشرعي صلة، هي القناة التي تتّصل عبرها المدينة بحكّامها، وكان التجّار يفتحون قنوات أخرى مع حاكم السياسة فتجري المياه في القنوات فيسعد الخلق وتستمرّ الحياة. وكانت القلعة تحتضن الحامية، فيحفظون أمنها ونظامها. حارات تقفل ليلاً فتغلق على أهلها، ومدينة تقفل أول الظلام فتطمئن داخل بوّاباتها، يتكلّم باسمها مشايخ الحارات ومشايخ الحرف ومشايخ الفقه. يأتي الناس الى المحكمة ويذهبون، وهي التي تشكّل نقطة ارتكاز عيشهم وضمان حقوقهم، فلا يتورّع الصغار عن رفع الدعاوى في وجه الحكّام والولاة والعساكر، وأولئك الحكّام الذين ينهبون ويتجبّرون، يتذكّرون ربّهم أمام رهبة الموت، فيوزّعون ثرواتهم ويوقفون الأوقاف ويفكّون رقاب عبيدهم ويبكون من التأثّر.

وبدت لي المدينة كأنها بداية العالم ونهايته، لولا أن حكامها يأتون من أمكنة بعيدة. لكن ذلك لا يبدّل من كون المرء يولد فيها ويعيش ويعمل ويهرم ويموت كأنه يعيش في رحم أمّه قبل أن تلده. مدينة يولد فيها الغريب غريباً ويموت غريباً، هي نفسها التي تحتضن الغرباء وتجعلهم أولادها فينتسبون اليها. وحسبتُ الناس عاشوا سعداء لا يقلقهم

قلق بالرغم من خصوماتهم وعقودهم وأفراحهم وأحزانهم، فقد قبلوا أقدارهم، يرتّبون شؤون حياتهم كما يرتّبون شؤون موتاهم وتركاتهم. يتزوّجون ويطلّقون ويبيعون ويشترون ويعيشون في هذا العالم المتكرّر المتشابه كأنهم يعيشون في مدن أخرى في ظلّ حكّام وقضاة يشبه بعضهم بعضاً. ينتفضون ويرضخون، يحزنون لموت سلطان ويحتفلون بصعود آخر، يأوون الى منازلهم في أول الليل ويستيقظون مع صلاة الفجر.

بدأت أتعرّف الى شخصيات، مثل نقيب الأشراف وإمام الجامع الكبير وشيخ محلّة النورية وأسقف الملّة المسيحية وشيخ التجّار والمعمار باشي وشيخ القصّابين وشيخ السبعة وآغا الإنكشارية والباشا المعزول والدفتردار ومحاسبه. وفخر التجّار جدّي الأعلى عبد القادر زاده الذي حضر الى المحكمة مع جمع من التجّار وأقرضوا الوالي مبلغاً من المال لفكّ أسر سفينة وقعت في أيدي القراصنة.

عرفت الحارات واحدةً بعد أخرى، وأسماء مشايخها وأرباب عائلاتها، ودورها داراً بعد أخرى، ومنزلاً إثر منزل، وأن أحدّد مواقعها وعدد غرفها، مثل: «الدار العامرة الكائنة بمحلة الأكوز، وتشتمل على سفل وعلو، فالعلو يشتمل على ثلاث طباق والسفل يشتمل على بيت أرضي وعلى فسحة سماوية قائم بها بعض أشجار ومطبخ ومرتفق ومنافع ومرافق، ويحدّها قبلةً بيت الشيخ مصطفى، وشرقاً كذلك، وشمالاً بيت فضل الله أفندي، وغرباً الطريق وفيه الباب». أو: «الدار الكائنة بمحلّة الجسرين المشتملة على ثلاث طباق علوية وثلاثة أقبية سفلية ومغارة ويحدّ الدار المزبورة قبلةً بيت الشيخ محمد بن

مرحبا، وشرقاً الجبل وشمالاً بيت الحاج عودة وتمامه بيت ابن علايا». وتخيّلت أن الناس تعيش في مثل هذه الدار أو تلك.

وتعرّفت الى حوانيتها ودكاكينها وأفرانها وطواحينها ومساجدها وحمّاماتها، وقلت في نفسي: أي تاريخ يمكنه أن يجمع كل هذا العالم الذي تختصره المدينة؟

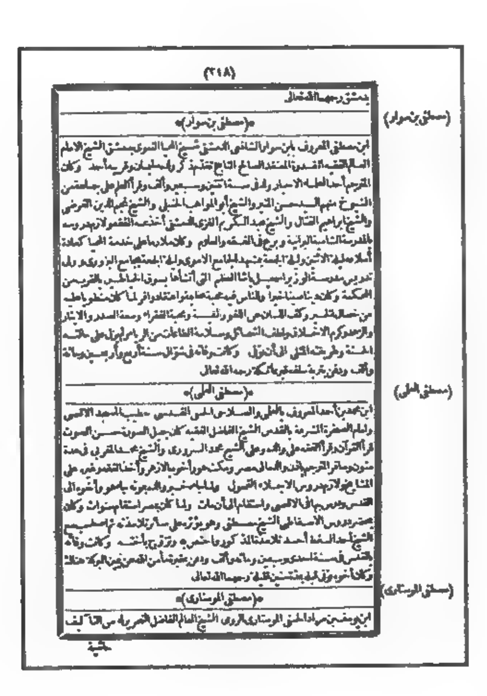
كانوا يأتون الى محفل الحكم الشريف لينطقوا بأقوالهم وإيمانهم التي تشكّل موادّ هذه الرواية. لكن المسرح الخلفي كان المدينة بكاملها داخلها وخارجها، باطنها وظاهرها، قراها وأقضيتها. وكان الأبطال الذين يصنعون هذه الرواية وتشكّل أخبارهم مادّة المذكّرات، يشغلون المسرح لحين، في عزّ شبابهم ورجولتهم ونفوذهم وسطوتهم، ليغادروه في حين عجزهم واضمحلالهم، ليحلّ بعدهم أبناؤهم؛ العالم يرث العلم عن أبيه ويرث عنه وظيفته، والتاجر يرث تجارة والده، والحرفي يرث حرفة معلّمه، والعبد يرث العبودية إلا من منّ عليه سيده بالحرية، والثري يرث الثروة، ويرث الفقير الفقر. هكذا تتعاقب الأجيال بعد الأجيال، يتبدّلون ويتخاصمون ويرحلون، ويبقى نظام حياتهم وعيشهم لا يتبدّل ولا يطرقه فساد. ليس ثمّة تاريخ بل وقائع لا تقلق استقرار مدينة تعيش وفق توقيتها وزمنها الذي لا دلالة على سريانه سوى تواريخ القضايا التي يوقّعها الشهود: «وجرى ذلك وحُرّر في أواسط شهر المحرّم الحرام من شهور سنة ثمان وسبعين وألف». ولا يبدّل من هذا الاستقرار موت وال أو استبدال قاض، ولا خسوف أو كسوف ولا غرق سفينة أو وقوعها في أيدي القراصنة أو عودتها محمّلة بالسكّر والأرز، أو وقوع معركة أو موت سلطان، فكل ما

يحدث يدخل في انتظام أمور الكون والخلق وأولياء الأمور، وانتظام السنن والشريعة التي ينطق بأحكامها الحكّام ويؤمّن استمرار نظام الكون والسياسة والمدينة والعائلة والسوق والبيع والشراء والزواج والطلاق والحياة والموت والبالغين والقاصرين والعاقلين والمجانين والنساء والرجال والمسلمين وغير المسلمين.

بل أن جميع تلك الأحكام التي ينطق بها القضاة ويدوّنها الكتّاب ويشهد على صحّة وقوعها الشهود، كانت تخرج من مبنى المحكمة القديم في الدرب الآخذ الى الحصن، قبل انتقال مبناها الى خارج نطاق السور. قضاة تعيّنهم عاصمة الدولة فيأتون لينطقوا بأحكامهم باسم الشريعة لتأمين انتظام الأحكام في المدينة وتثبيت دعائم الأركان التي تنهض فوقها الأعمدة التي تصنع قوّتها وقسوتها وتعاقب ليلها ونهارها.

هذه المدينة التي تختصر الكون لم تكن تتجاوز النهر في شمالها وجامع قايتباي في غربها والحصن في أعلاها والخان ذي البوابة العارمة في اتّجاه قبلتها. ولم تكن أسواقها العامرة ومساجدها وحمّاماتها المنوّرة بالمصابيح آثاراً وأجزاءً من الماضي، بل علامات على استمرار الحياة وانتظام معاش الناس.

منزل الأستاذ قرب المعهد


(٢١٨)

(مصطفى بن سوار)

(مصطفى العلمي)

(مصطفى الموستاري)

I

بكّرت في الذهاب الى المقهى. وكنتُ تواعدت مع وليد مالك أن نلتقي، لنمضي سوية لزيارة الأستاذ كامل محرّم. وقد تعمّدت أن أصل باكراً لأقرأ الجريدة، كعادتي حين أجد نفسي خالياً من العمل والأفكار. أمضي الى المقهى كما أفعل منذ سنوات، لأقرأ الجريدة وأشرب فنجاناً من القهوة. عادة ما أجلس عند الطاولة أمام الزجاج الذي يفصل المقهى عن الرصيف في الخارج، بحيث أراقب ابتداء نهار المدينة التي تصحو هادئةً وسرعان ما يشتدّ نشاطها. وكان جلوسي أمام الزجاج في نهار من آخر أيام آذار يسمح لي بمراقبة تلك الحركة التي تصنعها مشاهد تتكرّر كل يوم. في تلك الصبيحة التي امتزج فيها برد الشتاء وإشراق الربيع. كان الشارع أمامي قد انطبع بهذا المزاج الذي يصنعه تداخل الفصول، فانجذب اهتمامي الى حركة العابرين في اتّجاهين متقاطعين؛ الذين يأتون من جهة الغرب باتّجاه الساحة العامّة والشوارع المتفرّعة منها، يمرّون أمام المقهى، وأولئك الذين يأتون من شرق المدينة يعبرون بالاتّجاه

المعاكس. كنت ألاحظ الفتيات الذاهبات الى المكاتب حيث يعملن سكرتيرات لدى المحامين والمهندسين ومساعدات في عيادات الأطبّاء في هذه الجهة من المدينة. لذا فإن سكرتيرات الصباح اللواتي تجاوزن سنّ العشرين كنّ ينتقلن من جهة الشمال والشرق، حيث الأحياء المكتظّة، الى الجهة الغربية من المدينة التي تقوم فيها الشوارع الحديثة. كنتُ أفكّر أن هذا الانتقال يثير في مخيّلاتهن آمال مغادرة البيئة التي تحاصر طموحاتهنّ الصغيرة. وبعض الفتيات اللواتي يأخذن الطريق المقابلة للمقهى كنّ يعملن بائعات في محلاّت الألبسة الجاهزة، يتقاضين أجوراً زهيدة مثل السكرتيرات غير المدرّبات في مكاتب المحامين وعيادات الأطبّاء، اللواتي يقتصر عملهنّ على استقبال الزبائن. إلا أن هذه الأجور تكفيهنّ لمساعدة الأهل والاعتناء بزينتهنّ. فتيات يغالبن حدّ البؤس الذي يداهمهنّ في أعمارهنّ الجميلة. لم أحفظ من وجوه عابرات الرصيف أمام المقهى سوى وجهين أو ثلاثة. الشقراء الفارعة الطول التي عادةً ما كانت ترتدي فستاناً يكشف ركبتيها، وكانت تخفض بصرها عند مرورها أمام المقهى، كأنها تعلم أن أنظار بعض روّاده تلاحقها حتى غيابها عند المنعطف. وتلك التي ترتسم على وجهها ابتسامة، كانت تتمهّل في مشيتها عند مرورها أمام المقهى، كأنها تتعمّد أن يراقبها روّاد المقهى لحظات إضافية. وتذكّرت، أثناء جلوسي في المقهى أتصفّح جريدة الصباح، السمراء التي عادةً ما كانت تلبس بنطالاً يكشف امتلاء قوامها، فقد مضت أسابيع منذ رأيتها آخر مرّة ولعلّها غيّرت مكان عملها، أو لعلّها وجدت زوجاً نشلها من ساعات العمل المملّة في «بوتيك جانين» لبيع الألبسة

النسائية الجاهزة.

كان هذا المقهى الذي يقوم في الجهة الجنوبية للساحة العامّة، الأول بين مقاهي الجيل الثالث. فقد أراده صاحبه عند تأسيسه في وسط الخمسينات مقهى يحاكي أمثاله في إيطاليا حيث يندمج المقهى في الرصيف العريض أمامه، فصار في أول سنواته ملتقى للطلاّب والخرّيجين. ومنذ ذلك الحين قامت مقاه أخرى كانت علامة على حياة الاختلاط الجديدة، لكنها لم تستطع أن تفي بدعوتها الى حياة عصرية، فتحوّلت الى مقاه عادية. ومن بين الجيل الجديد من المقاهي، «لاكازا» الذي أراده صاحبه مطعماً فاخراً ومربعاً لحفلات نهاية الأسبوع، لكنه تحوّل سريعاً الى ملتقى لصغار رجال الأعمال. وعادةً ما فكّرت بالأسباب التي تجعل المقاهي عرضةً لسوء المصير في هذه المدينة. والتفكير بهذا الأمر نشأ لديّ بتأثير من المعلّم فيصل مختار الذي أرتاد مطعمه بين الحين والآخر. وقد روى لي العديد من قصص المقاهي والمطاعم التي عرفها وتعلّم فيها مهنته، وقد قال مرّة: «إن العصر الذهبي للمطاعم هو الأربعينات حين كانت السياسة تصنع فيها، وتصنع فيها أشياء أخرى من الجاسوسية والغرام». وقد حدّثني عن التركي الذي كان يدير ملهى، ويدير في الوقت نفسه شبكة جاسوسية، وحين دخل الإنكليز في أول الأربعينات، قبضوا عليه ولم يعد، فتولّت زوجته الإيطالية الأصل، الملهى دون أن تفتقد غيابه. وقد أنشأ المعلّم فيصل مطعمه الخاصّ في الخمسينات حين كان شارع سنجر، كما قال، شيئاً آخر لا يشبه حاضره، تضيئه الأنوار ولا تفتر فيه الحركة ليل نهار. وكانت النساء يأتين مع الرجال لإحياء الحفلات الراقصة في

عدد من المرابع. وقال لي مرّة: «في هذا المكان، وأشار إلى متجر لبيع الأدوات الكهربائية، حيث يقوم مطعم «الإتوال»، ملتقى الطبقة الراقية آنذاك. أمّا دكان تأجير الدرّاجات الهوائية، الذي يقوم عند الزاوية، فكان الأرمني شاهيه يَعدّ فيه أشهر أنواع السندويش فيقصده الناس حتى ساعات الصباح الأولى». كان مطعم فيصل مختار، الذي يحتفظ بأثاثه القديم، يروي جانباً من رغد العيش في تلك الأيّام قبل أن يتحوّل إلى مطعم شعبي يقدّم الوجبات الرخيصة للعابرين والمتوحّدين.

إنّ فيصل مختار ومطعمه ينتميان في حقيقة الأمر إلى الجيل الثاني من المقاهي وأمكنة اللقاء العامّة، التي كان أوّلها مقهى الزهراء الذي افتتح في زمن الانقلاب الدستوري، فعرف باسم مقهى الدستور، لأن أنصار الانقلاب من أبناء المدينة جعلوه مكان لقاءاتهم. وقد مرّ الزهراء بفترة عصيبة في سنوات الحرب الأولى لكنه استأنف نشاطه في زمن الانتداب وكان ملتقى الفيصليين والوطنيين، لهذا حاز صيتاً حسناً في المدينة، وكان كامل محرّم من روّاده الدائمين كذلك ياسين الظاهري وزعماء المدينة ووجهائها. ويمكن لمؤرّخ المقاهي أن يتعرّف إلى نوعين من مقاهي الجيل الثاني، تلك الوطنية والأخرى الانتدابية كأنها أحزاب وتيّارات السياسة في ذلك العصر. وكان أبرز مثال على النوع الثاني، مقهى «الأليانس» الذي قيل لي إن صاحبه قد أطلق عليه عند افتتاحه اسم «لومندا» ولكنه اضطرّ إلى تبديله تحت ضغط التهديد بالإقفال.

ولا شكّ بأن مقهى الزهراء حمل، عند افتتاحه، بعض تقاليد الجيل الأوّل من المقاهي التي كانت تقوم داخل المدينة

القديمة، ومثال عليها مقهى الزجاج الذي هو عبارة عن عقد حجري يقوم في ساحة الخاتونية، وهو ملتقى المسنّين من مدخّني الأركيلة، وهو الذي يرتاده حسن البدوي منذ بضعة عقود من الزمن، وقد قيل لي إنه من أقدم المقاهي التي تعود إلى بداية القرن التاسع عشر.

عند العاشرة حضر وليد مالك معتذراً عن التأخير، فتوجّهنا لتوّنا في زيارتنا للاستاذ كامل محرّم في منزله الذي يقوم في شارع الأفغاني غير بعيد عن المبنى القديم للمعهد العلمي. كنت مندفعاً لهذه الزيارة لرغبتي في التعرّف إلى كامل محرّم الذي طالما سمعت به، كأنه علامة من علامات المدينة. وقد سمعت حوله آراء مختلفة وحول دوره في تأسيس الجمعية وسياسة المدينة.

في طريقنا للقائه، قال وليد مالك إن الأستاذ ما زال متمتّعاً بكامل طاقته الذهنية، بالرغم من تجاوزه الخامسة والسبعين من العمر. وقد أصابه الوهن منذ ثلاث سنوات، إلا أنه لم يفقد حيويّته التي طالما طبعت شخصيّته. وهو لا يزال يواظب على السير ولو لمسافة قصيرة كل يوم، فيذهب أحياناً إلى سوق المدينة القديمة، ويقصد مرّة أو مرّتين في الأسبوع مقهى الزهراء في الساحة العامّة حيث يلتقي بعض من تبقّى من أصدقائه القدامى.

كان منزله الذي ورثه عن والده، يقوم في هذا الشارع الذي كان في ما مضى هادئاً وجميلاً، تعود مبانيه إلى العقدين الأوّلين من القرن، يمتزج فيها تقليدان معماريّان، قديم وحديث، غير تلك التي بنيت في ما بعد، فغلب عليها الطراز المعماري العصري. لكن ضجيج السوق انتقل إليه بعد أن تحوّلت طوابقه الأرضية إلى دكاكين ومتاجر. كان

الأستاذ ينتظرنا وقد ارتدى بذلة قاتمة وربطة عنق مخطّطة، فبدا أنيقاً، لكن أناقته تنتمي إلى عصر مضى. فتذكّر بما كان عليه آنذاك من همّة ونشاط. وكان انتصاب قامته والمرح الذي استقبلنا به، يجعلانه يبدو أصغر عمراً ممّا هو عليه حقّاً. وبادرني بعد أن رحّب بي قائلاً: «قرأت لك مقالاً في مجلّة الدراسات التاريخية. أريد أن أناقشك بما ورد فيه». فشكرته على اهتمامه، لكنه لم يعد إلى الموضوع مرّة أخرى.

جلست بين إبراهيم شيبان ووليد مالك. وكان شخصان آخران قد حضرا، هشام درويش وأمين سريّ الدين. وقد دعيا بصفتهما من بين أقدم أعضاء الجمعية. وبالرغم من أنّهما قد تركاها منذ سنوات طويلة، فإن إبراهيم شيبان ارتأى دعوتهما للمشاركة في احتفال تكريم الأستاذ القديم.

كان الأستاذ الذي بدأ الكلام، ميّالاً إلى السرد الذي تختلط فيه الأفكار بالذكريات، وقد شرع يتحدّث عن أهمّية الاعتناء بالتاريخ. وقال: «لقد تعلّمنا تاريخنا حين كنّا على مقاعد الدراسة، ودرّسناه لطلاّبنا الذين عرفوا ماضي أمّتهم منذ صغرهم»، فوافقه الحاضرون، لكنه تابع: «من المفيد أن نهتمّ بتاريخ مدينتنا وتراثها، وإنني متفائل بعطاء الجيل الجديد من الشباب». وأشار بيده صوب وليد مالك وصوبي. وذكر أنه حاول منذ بضع سنوات أن يبدأ بكتابة مذكّراته، ولكنه توقّف بسبب تعبه. ويودّ لو يستطيع أن يستأنف الكتابة. وكان يعتبر أن الوقائع التي شهدها وشارك فيها هي تاريخ المدينة خلال ثلاثة أرباع قرن مضت.

قلت له: «عرفت أنك كنت تلميذاً للشيخ المسيري المتوفّى منذ ستين سنة»، فقال: «منذ ثمانية وخمسين سنة

بالتحديد. كنت صبيّاً حين درسنا عليه اللغة العربية في المعهد العلمي العربي الذي افتتح في أوّل العشرينات، وقد تبرّع الشيخ المسيري بالتدريس ليدعم قيام هذا المعهد الأهلي، الأوّل من نوعه». وتابع: «كان تأثير الشيخ قوياً، بالرغم من كوننا لم نفهم كلّ ما كان يحدّثنا به، خصوصاً حين يستطرد في أمور تفوق إدراكنا. وقد حدّثنا مرّة عن سوء الأحوال والدول الأجنبية والخلافة، فرويت لوالدي ما أخبرنا به الشيخ، فأجابني حسبما لا زلت أذكر: «لقد نطق بنصف الحقيقة». فلم أفهم قصده ولكنني تظاهرت بأنني فهمت»، وأضاف: «كنت متأثّراً بوالدي الذي لم أعرفه كثيراً. واليوم أجد أن المسيري كان على صواب في الكثير ممّا كان يقوله».

كان أحمد محرّم كامل الوالد عروبيّاً من رجال فيصل الأوّل، وقد أخذ الأستاذ عنه حماسه وأفكاره. وإذ توفّي الأب في مقتبل العمر، فإن سيرته بقيت غامضة، وخصوصاً أمر التحاقه بالأمير فيصل في دمشق ودوره آنذاك. وقد تمكّن كامل الإبن، الذي أبدى ذكاء في متابعة دروسه، فقُبل مدرّساً في المعهد العلمي بعد تخرّجه وفاء لذكرى والده. كان ذلك في منتصف الثلاثينات في خضمّ الزمن الاستعماري، وسرعان ما اكتسب شهرته كمناضل قاد طلاّبه في التظاهرات بعد أن علّمهم العروبة من خلال تدريسه اللغة والتاريخ. وكان، بالإضافة إلى ذلك، خطيباً مفوّهاً. فامتدّت شهرته خارج أسوار المعهد الذي يدرّس فيه. وصار له أتباع بين الطلاّب في المدارس القليلة الأخرى، الذين اقتنصوا الفرص ليحضروا مجالسه ويستمعوا إلى خطبه ومحاضراته. وجعل من الكلّية العلمية

بؤرة نشاط ضد الانتداب. وفي الفترة اللاحقة لتأسيسه الجمعية، صار شخصاً مرموقاً من شخصيات المدينة، وسطع نجمه في زمن النكبة، فألهم طلاّبه ضرورة الثأر للهزيمة. ونظّم اللجان التي ساعدت اللاجئين. فصار أستاذ التاريخ اسماً لامعاً في سماء المدينة، فانخرط في شؤون السياسة المحلّية، لكنه عجز عن تحقيق طموحه السياسي، فبقي أستاذاً حتى سنّ التقاعد. فلم يستطع أن يحظى بمنصب مدير المعهد الذي أمضى فيه نصف قرن من الزمن، والرئاسة الوحيدة التي حصل عليها كانت رئاسة الجمعية التي أسّسها.

كان كامل محرّم يريد أن يتابع ما بدأه والده، الذي قيل إنه لو كتبت له الحياة لصار زعيم المدينة بغير منازع، وقد عمل الأستاذ طوال حياته ليضفي على نفسه الصورة التي كانت لوالده.

ولأنه اعتبر أنني أعرف عنه القليل، فقد استعاد بعض ذكرياته خلال حديثه. قال: «لقد كافحنا وسُجنّا». وبالفعل، فإنّ سلطات الانتداب أدخلته السجن مرّتين، أمضى في الأولى أسبوعاً، وفي الثانية أربعة وعشرين يوماً. وإذ افتخر أنه كان ضالّة شرطة الانتداب، فقد أخفى طوال حياته ألماً من الشائعات التي راجت حول أصوله. فحين برز كمناضل يحشد الطلاّب في التظاهرات، وحين حشر نفسه في شؤون السياسة المحلّية، خاف الزعماء المحلّيون من طموحه، وقالوا إنه ليس من أبناء المدينة، يقصدون أنه لا يستطيع أن ينوب عنها أو ينطق باسمها، وادّعوا أنه وفد إليها حين كان لا يزال صبيّاً مع والده من أضنة. وهو لا ينكر ذلك، ويقول إن جدّه هاجر إلى أضنة لأعمال

التجارة، واستقرّ هناك وأنجب بدون أن يقطع صلته بمدينته وأهله. وسرت الشائعات في المدينة أن كامل محرّم من أصل تركي، وقيل إن والده وفد إلى دمشق، ولم يستقرّ في المدينة إلا فترات قصيرة. لكن كامل محرّم طالما اعتبر نفسه ابن المدينة، وإن أخفى انتسابه إلى الأتراك من جهة جدّته.

وبالرغم من إغراقه في أسلوبه الخطابي، إلاّ أنه كان يصيغ بعض القضايا والأسئلة. قال: «علينا أن نبدأ بتواريخنا الخاصّة لنؤلّف من مجموعها تاريخاً شاملاً»، وأضاف: «هذه مهمّة كل متنوّر ملتزم». وتطلّع صوبي وقال: «علمت أنك تهتمّ بالوثائق وهذا أمر هامّ جداً، لقد جاءني العديد من الباحثين الغربيين أيّام تدريسي في المعهد، ليتحدّثوا معي في تاريخ المدينة، فكنت أوجّههم إلى المحكمة، فكانوا يمضون وقتاً ليفتّشوا في وثائقها، لكنني لم أجد أحداً من تلامذتي يهتمّ بهذه الوثائق».

تدخّل هشام درويش الذي بقي صامتاً طوال الوقت، وقال: «هذه الوثائق لا يمكن أن نتركها لأي كان يعبث بها على هواه ويؤوّلها حسب مراده، فلا بدّ من إيجاد هيئة تشرف على شؤونها ودراستها».

اعتبرت ملاحظته غير ودّية، ولكن إبراهيم شيبان، الذي وجد أن الحديث قد أخذ بالتشعّب، بادر إلى الكلام وقال: «لقد جئنا اليوم لنعلمك بأن الجمعية قرّرت إقامة مهرجان تكريمي لك، وأردنا في هذه المناسبة أن نطلق مشروعاً يدور حول تاريخ المدينة وتراثها، كما ارتأينا أن يشاركنا في المهرجان الأعضاء القدامى في الجمعية، ولهذا دعونا الإخوة لهذه الزيارة».

لم يُبد كامل محرّم أي ردّ فعل، سوى أنه قال:

«مشروع من أجل الاهتمام بتاريخ المدينة يحتاج الى جهود كبيرة، أرجو أن يكون في الجيل الجديد العديد من الذين يهتمّون بهذا الأمر»، وقام إلى مكتبته في صدر القاعة، وأخرج كتاباً وتوجّه صوبي وقال: «أريد أن تقرأ هذا الكتاب، وتستفيد منه، ففيه جانب هامّ من تاريخ المدينة». تناولت الكتاب وقرأت عنوانه «تراجم»، لمؤلّفه معروف الحسني. فشكرته ووعدته أن أعيده في أقرب وقت.

كنّا نهمّ بالمغادرة حين دخل رجل عجوز يبدو عليه الإعياء والتعب. فتوجّه كامل محرّم لاستقباله. وقال: «شرّفت يا شيخ ياسين»، فجلس العجوز لتوّه وقال: «تعرف أنني لا أستطيع الاستغناء عن زيارتك». فضحك الأستاذ وقال: «تعرفون الشيخ ياسين الظاهري؟». فعقب أمين سريّ الدين: «من لم يسمع بالشيخ؟». لكن الأستاذ تابع كلامه: «الشيخ ياسين كنز معلومات، لو كتب مذكّراته لبدّل تاريخ المدينة وحاضرها». فقلت: «أتمنّى لو يكتب فنستفيد من علمه»، فأجاب الشيخ ياسين من دون أن ينظر إليّ، وقد توقّف عن السعال لتوّه: «ماذا أكتب في هذه السنّ؟ لقد تغيّر الزمن، ولم تعد المعرفة تنفع، لأن أحداً لا يريد أن يعرف أو يتعلّم».

عرّف الأستاذ محرّم بي ذاكراً للشيخ ياسين بأنني أهتمّ بتاريخ المدينة، فتطلّع صوبي، وقال: «لا تضيّع وقتك يا أستاذ بتاريخ مليء بالنفاق، إنهم لا يستحقّون أن تبحث في تاريخهم!».

لم أستطع أن أخفي دهشتي، وكانت المرّة الأولى التي أسمع فيها رأياً مماثلاً، فسألته: «لماذا يا شيخ ياسين؟»، فأجاب مستنكراً: «لماذا؟ إسأل الأستاذ كامل فيقول لك».

لاحظت أن الانزعاج قد علا ملامح الأستاذ، كأن الشيخ ياسين يحرّك بعصاه التي كان يحملها، جمرات النار في رماد الماضي. فحاولت أن أتدارك الأمر، فقلت: «يمكن أن تخبرني رأيك في وقت لاحق؟»، فأجاب ساخراً: «إذا تبقّى لي وقت» وأضاف: «الأمر يحتاج إلى جلسات ومجلّدات، وأنا لا أطيق الكلام عن الماضي».

II

كان الكتاب النادر الذي أوصاني الأستاذ بقراءته يحمل عنواناً مكوّناً من كلمة واحدة: «تراجم»، ومؤلّفه هو معروف الحسني. وقد طبع في دار الترقّي عام ١٩٣٣ وهي واحدة من عدّة مطابع أنشئت في أعقاب الانفتاح الذي أحدثه الانقلاب الدستوري، وازدهرت مع ازدهار الصحافة في المدينة الى درجة أن أحد الشوارع التي عمرت في تلك الفترة قد عُرف باسم شارع المطابع. وبقي الشارع محتفظاً باسمه بالرغم من أن بعض المطابع التي قامت فيه قد أقفلت واحدة بعد الأخرى، وكان آخرها مطبعة «البلاغ» التي أقفلت قبل عشر سنوات بعد وفاة صاحبها. وحين أراد ابنه أن يبيع آلة الطباعة الهيدلبرغ، لم يجد من يشتريها.

لم أكن سمعت من قبل بالكتاب ومؤلّفه. ولعلّ ندرته تعود إلى كون طباعة الكتب لم تتجاوز في ذلك الزمن بضع مئات من النسخ، يوزّعها المؤلّف على أصحابه. ويبدو أن معروف الحسني لم يكن كاتباً، فكان «التراجم» هو مؤلّفه الوحيد، وهو أقرب إلى مجموعة من السير التي جمعها في أوقات متفرّقة وخلال زمن طويل، ودفع بها إلى المطبعة

لتكون كتاباً فريداً لا شبيه له.

وخلال تصفّحي الكتاب، عثرت في صفحته الأخيرة على ترجمة للمؤلّف كتبها بنفسه يقول فيها إنه كان مولعاً بقراءة الكتب وتعقّب أخبار الناس، بالرغم من أنه عمل في التجارة التي ورثها عن والده، إلا أن مكوثه في المدينة وفي سوقها قد سمح له بمعرفة غالب أهلها، فكان يسأل الناس عن أخبارهم وأعمارهم، ويدوّن ما يسمعه ويعرفه في أوراق حفظها حتى تكوّنت له مادّة كبيرة، فأراد أن ينشرها ليعرّف المدينة برجالها الذين رحلوا وتركوا آثارهم بجليل أعمالهم وما اشتهر كلّ واحد منهم، فتكون ذكرى هؤلاء الرجال عبرة للجيل الجديد.

وتبيّن لي من خلال قراءتي أن المؤلّف كان مطّلعاً على بعض كتب التراجم مثل «سلك الدرر» للمرادي و«حلية البشر» للشيخ عبد الرزّاق البيطار، ومنهجه في الكتابة يشبه منهجهم، وهو يعتقد، مثلهم، أن ما يفعله هو عين التاريخ. وأصدق التاريخ، حسب تعبيره، هو سير الرجال، وخصوصاً من ترك منهم أثراً وفعل خيراً وخلّف ذكراً وذكَراً. ويورد سير أعلام من عصور خلت لم يشهدها، وقد جاء بأخبارهم من روايات سمعها، كما جاء بعضها الآخر من الكتب التي قرأها.

ازداد اهتمامي بالكتاب حين تنبّهت أنه يورد تراجم لبعض الأسماء التي مرّت بي خلال قراءتي في وثائق السجلاّت، فتعرّفت إلى بعض جوانب لا تكشفها السجلاّت ولا تعتني بها. ولاحظت أن كتاب الحسني يضفي على بعض الأسماء التي عرفتها حياة لا تكسبها إيّاها الوثائق. فزاد شغفي بقراءة الكتاب، الذي يكشف أصول

بعض العائلات، فيقول إن أصل عائلة السعدي من دمشق وقد جاء جدّهم من تلك المدينة في عمل واستوطن في مدينتنا بعد أن استطاب مناخها وأحبّ أهلها. ويقول إن أصل عائلة الأشرفي من مكّة، وإن عائلة الحسني تنتسب إلى الإمام الحسن.

وقد رتّب مادّته ترتيباً تاريخياً فبدأ بالأعلام الذين عاشوا في المدينة أو مرّوا بها في أيّام الدول في عصور سابقة، إلاّ أن مادّته الموثوقة تبدأ مع أعلام القرون المتأخّرة. ففي ترجمة الإمام نور الدين محمد، شيخ الحنابلة في نهاية عهد المماليك في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، يذكر أنه كان عالماً جليلاً تقلّب في مناصب عديدة وكانت كلمته مسموعة لدى الحكّام. وقد أخذ هذه المعلومات من كتاب «النجوم السائرة» للغزي، إلاّ أنه يضيف بأن الشيخ نور الدين هو رأس العائلة التي تعرف باسم النوري ومن أعلامها في زمن المؤلّف عصمت النوري المحامي الذي درس الحقوق في اسطنبول وكان أوّل من افتتح مكتباً في المدينة.

وبسبب ترتيبه الأعلام ترتيباً زمنياً فقد لاحظت أن رجال المدينة البارزين في القرن الثامن عشر كانوا بمعظمهم من العلماء، ومنهم الشيخ الخالدي، المتصوّف الذي كان معتقد أهل المدينة ومرجعهم. ومنهم الشيخ عبد القادر الكناني، خطيب جامع العطّار وله حاشية على «الأربعين النووية». ونقيب السادة الأشراف حسن ابن عبد الحقّ وهو جدّ سعد الدين الأشرفي، المتكلّم باسم المدينة في زمن الدستور وأوّل عهد الانتداب. وبوصوله الى القرن التاسع عشر يبدأ بذكر الأعلام من غير رجال الدين، مثل فهمي الدهّان الذي كان

شريكاً للوالي في تجارة الحرير، ودرويش شيخ السبعة الذي يجلب الرزّ في سفن تأتي من مصر وكانت له ثروة طائلة فبنى قصراً في أوّل الهضبة لا يزال قائماً إلى يومنا كما يقول المؤلّف. إلا أن المبنى قد هُدم في توسيع الطريق في وقت لاحق كما عرفتُ. ويذكر عدداً من وجوه الروم في المدينة، وأبرزهم ينّي خيّاط الذي عمل في التجارة، وكان قنصلاً لإيطاليا، في نهاية القرن الذي سلف، وسليم البادري وكان له شأن أيّام الحملة المصرية وابنه حنا البادري الذي أسّس أوّل وكالة للنقل البحري، ويوسف سمارة الذي أسّس صحيفة «أحوال الولاية» وكان مقرّباً من المتصرّف العثماني في المدينة.

وبدا لي الكتاب مسلّياً وممتعاً لكثرة القصص التي يرويها، وبدأت اقتنع بنسبته إلى التاريخ، تاريخ الناس من خلال معاشهم وعاداتهم. ووجدت أن مادّته الموزّعة بين سير وتراجم العلماء والوجهاء والسادة وأواسط الناس، يمكن أن تكون سجلاً لتطوّرات عاشها مجتمع المدينة، وهكذا عرفت متى أنشئت أوّل مدرسة تدرّس اللغة الفرنسية ومن هو منشئها، ومتى أسّست أوّل فبركة لصنع المفروشات، وأوّل مطبعة وأوّل صحيفة. ومن كان أوّل أنصار حزب اللامركزية وأوّل أتباع «تركيا الفتاة»، وأوّل من سبق في خلع الزيّ التقليدي ولبس الزيّ الأوروبي، وأوّل من بنى خارج نطاق المدينة. وإذا كان الكتاب سجلاً لأعلام المدينة، فقد أفرد بعض السير لأفراد من العامّة اشتهروا بأمر أتقنوه، مثل إبراهيم الحماصني أشهر بائع فول في المدينة، وشاكر القهوجي صاحب المقهى في طلعة الأضناوي، وسعيد حليمة المشهور بكراكوز الذي أدخل

خيال الظلّ إلى مقهى شاكر، وأسعد البهلوان الذي يغيب سنة وسنتين ويعود إلى المدينة فتتعطّل الأعمال لما يأتيه من حركات يعجز عنها سواه فيتهافت الناس كباراً وصغاراً للتفرّج على ألعابه وحركاته.

تنبّهت إلى أن الكتاب يروي دون أن يصرّح، التطوّر الذي أصاب النخب، فتحوّل النفوذ من العلماء إلى التجّار والإداريين والقناصل في أواسط القرن التاسع عشر. وكيف نشأت طبقة جديدة من الوجهاء الذين برزوا بين عصر التنظيمات والعهد الدستوري، فكانوا أوّل من تجرّأ على التقاليد الموروثة، فبنوا العمارات وأرسلوا أولادهم لدراسة العلوم العصرية في اسطنبول، ونادوا بالأفكار الجديدة. وحين قرأت سيرة خليل ابن موسى الأزهري، أدركتُ غاية المؤلف من وضعه كتابه، إذ يذكر أن خليلاً مات فقيراً ولكنه خلاصة عائلة الأزهري. كان تقيّاً ورعاً، خلّف ولداً وحيداً أحسن تربيته، وهو مدرّس اليوم في المكتب الإعدادي... فلم يكن في السيرة سوى التحيّة التي يوجّهها المؤلّف إلى عائلة الازهري باعتبارها إحدى أكثر العائلات أصالة في المدينة.

وإذ نشر المؤلّف كتابه عام ١٩٣٣، فلكي يحفظ ذكر أبناء المدينة وأعلامها، أمام ما دهمها وهدّد عاداتها وتقاليدتها.

من بين آخر السير التي أوردها المؤلّف ترجمة لأحمد كامل محرّم ويقول فيها: «إن والده قد هاجر إلى أضنة وإنه درس في اسطنبول وشارك هناك في تأسيس المنتدى العربي، وعاد مع من عاد من العرب ليلتحق بالثورة، فكان من رجال فيصل، وكان يعد بمستقبل بارز لولا أن الموت

دهمه قبل أن يبلغ الأربعين، إثر استقراره في المدينة بوقت قصير... وفكّرت: هل أراد كامل محرّم أن أقرأ كتاب «تراجم» لأتعرّف إلى سيرة والده الموجزة، وأن يحظى بعد حياة مليئة بالأفكار والنشاط، باعتراف انتماء أجداده إلى المدينة؟

تساءلت، عندما كنت أهمّ بطيّ الصفحة الأخيرة من الكتاب: هل كان يريد معروف الحسني أن يشهد لهذا النظام العائلي بالديمومة، وأن يضع عائلته التي أكثر من ذكر وجهائها في قلب هذا النظام وأن يثبت دورها، أم أنه كان يشعر بأن هذا النظام العائلي يواجه الانهيار، فأخذ على عاتقه مهمّة حفظه بين دفّتي كتاب؟

عبر السور والبوّابات

I

كانت الطريق قبيل الساعة السادسة مساء في نهاية نهار من أواخر شهر أيّارتفيض ببعض النشاط الذي يصنعه لهو الصبية وحركة المارّة. عادة ما تنطبع المدينة وشوارعها بسمات الفصول وأمزجتها، كأن المدينة تغادر رطوبة الشتاء وبطء أشهره الباردة، وتستعدّ للنشاط الذي يدبّ فيها مع حلول الربيع. والصبية، في هذه الناحية التي تُعرف باسم طريق الخندق، بدوا كأنهم يودّعون النهار بإطالة لهوهم في الحارة قبل استئناف يوم دراسة في الغد. وقد خطرت في بالي صورٌ مطبوعة من مخيّلتي، فتذكّرت سنواتي الأولى في المدرسة التي كانت أشبه بسرايا كثيرة الأدراج، فأضفت هندستها في نفسي رهبة أضيفت إلى قسوة الأساتذة السريعي الغضب والانتقام. ومع ذلك فإن مواسم المدرسة، حين كنت في الصفوف الابتدائية، كانت تثير إشفاق الأهل وعواطفهم، فيكثرون من قصصهم التي ترغّبنا بالدراسة. والمسافة من شارع الراهبات إلى طريق الخندق هي خطّ سيري إبّان سنوات المدرسة، فيه أترافق مع زملاء ألتقيهم

دونما اتّفاق فنتابع سيرنا سويّة.

حين وصلت الى المنعطف حيث يقع جامع قايتباي، فكّرت أنني أعبر الحدّ الذي يفصل المدينة عن ظاهرها في ما مضى من الزمن. كنت قرأت ذلك في أحد الكتب التي تروي تاريخ المدينة، وهي لا تزيد عن ثلاثة كتب. وقصّة السور الذي يحيط المدينة أخبرني بها وليد مالك كخبر يقيني. وكنت ذاهباً للقائه وقت المغرب، في تلك الأمسية. كان السور الذي يتحدّثون عنه يقع هنا في أوقات لا ترقى إليها ذاكرة أحد من سكّان المدينة أو أسلافهم. ولم تأت الوثائق التي تعدّ بالآلاف على ذكره. ولكن وليد مالك أكّد لي أنه سمع العديدين يردّدون أن أجزاء من السور ظهرت عندما كانوا يحفرون في الموقع الذي قامت فوقه بناية مصلحة المياه، فأسرعوا إلى إخفاء ما اكتشفوه خوفاً من إيقاف الحفر والبناء. وقد امّحت اليوم الحدود التي كانت تجعل المدينة أشبه بجزيرة عمرانية في محيط طبيعي يغدو عدوانياً في أوقات اشتداد البرد والحرّ، وفي الليالي المظلمة أيضاً. وقد تخطّى العمران تلك الأسوار التي لا يعرف عنها شيئاً سوى أولئك الذين يكرّسون أوقاتهم لقراءة ما تبقّى من تاريخ المدينة، وهم قلّة على أي حال، لا أعرف منهم سوى شخصين أو ثلاثة يناقضون بعضهم في ما يروونه من أخبار. وأتساءل من أين يأتون بأخبارهم الأشبه بالروايات الشفهية؟ وكلّما ابتعدت الرواية في الزمن كلّما اقتربت من الخرافة لشدّة ما تحاط بالمبالغة. وكنت قليلاً ما أعير تاريخ المدينة اهتمامي بالرغم من انشغالي بقراءة التواريخ المطوّلة. ولطالما اعتبرت التاريخ ضرباً من الأدب والإنشاء، ولهذا نسبوا المؤلّفات إلى أصحابها كأنهم اختلقوا ما يكتبونه.

وحين سألتُ قبل بعض الوقت عن مؤلّفات تختصّ بتاريخ مدينتنا، لم ألقَ جواباً شافياً، فاعتقدت أن ماضي المدينة قد دخل في طيّ النسيان، حتى اهتديت إلى الوثائق في المحكمة، التي لا تشبه كتب التأريخ بشيء، ولم تكتب لهذا الغرض. وداخلني اقتناع بأن أولئك الذين يتحدّثون عن ماضي المدينة ينسجون ما يروونه نسجاً، ويولّفونه تأليفاً، ويستعيرون أخبارهم من كتب متفرّقة فيخلطون بين مدن كثيرة، كأن كل مدينة تختصر تواريخ المدن المتشابهة كأخوات لا تُفرّق الواحدة عن الأخرى. واعتقدت في وقت من الأوقات أن كل الأخبار التي تتحدّث عن المدن مصدرها «ألف ليلة وليلة»؛ مدن خيالية مكتظّة أسواقها بالباعة والحرفيين والشطّار والنساء والحمّالين، وجعلوا لكل مدينة عصراً ذهبيّاً ملأوه بمئات المآذن والحمّامات ودور العلم. وحديث السور يتكرّر أبداً. فثمّة دائماً غريب وصل متأخّراً فانتظر عند بوابة المدينة حتى الصباح ليُسمح له الدخول. وحديثُ السور الذي يمرّ قرب جامع قايتباي، حيث أعبر الطريق، يبدو لي خبراً وهميّاً استعارته المخيّلة من ذكريات مدن لا تحصى، أو أنه الخطّ الذي صنعه الفقهاء ليميّزوا بين باطن المدينة وظاهرها. تلك المدينة التي تبدو في كتب الفقهاء وسجلاّت القضاة فضاءً شرعيّاً قبل أن تكون موقعاً ومكاناً وأزقّة ودروباً ومعالم. وتساءلت: تُرى لو كان الخبر صحيحاً، ففي أي وقت استغنت عنه المدينة؟ ولطالما سألت نفسي: هل كانت المدن محدودة بأسوارها، فلا تزيد أو تنقص او تتّسع، كأنها كائنات وُلدت مكتملة. وماذا عن البوّابة العارمة التي قيل إنها كانت تقوم في هذه الجهة؛ ها أنا أمرّ حيث ينبغي أن تكون في وقت مغيب

الشمس فلا أرى حارساً يتأهّب لإقفالها، ولا ألمس ما ينبئني بذلك الحدّ الذي يفصل المدينة عن خارجها، ولا يبدو على المارّة أنهم يتعجّلون العودة إلى دورهم قبل حلول الظلام. بل أن العمران شرق الطريق وغربها يبدو متّصلاً بدون انقطاع كأنه وُلد على هذا الشكل والنحو أبداً. وبالرغم من أن بناء الجامع سابقٌ على تلك الأرصفة التي تحاذي أبنية مرتفعة وملوّنة بألوان تختلف عن تلك التي تقع إلى شرقه والتي تتميّز بأحجارها ونوافذها الخشبية، أبنية تبدو كأنها انهزمت في مقاومة مرور الزمن، فلا تقدر على مطاولة تلك التي ترتفع بطوابقها فتظهر ضئيلة ومتواضعة إزاءها.

عبرتُ المسافة باتّجاه الشرق، وتخيّلت أنني صرتُ داخل الأسوار، وأن البوابة التي ستقفل بعد قليل ستمنعني من العودة من حيث أتيت. صرتُ في وسط ما يُعرف بالساحة، التي ليست أكثر من امتداد تتّصل نهايته بوسط المدينة الحديثة. وقد احتفظت باسمها منذ أجيال عديدة، كانت تُعرف في ما مضى باسم ساحة الديودار، ووحدهم كبار السنّ ما زالوا يعرفونها بهذا الاسم. وقد أصبحت أكثر اتّساعاً ممّا كانت عليه قبل عقدين من الزمن، بسبب هدم بعض المباني عند أطرافها، وكانت الدكاكين، عند جهتها اليسرى، تبشّر بمبتدأ السوق الذي يضيق عند انتهائها، دكان الخضري وإلى حدّه مقهى صغير يجاور دكان السنكري الصوفي ذي العمامة الخضراء واللحية البيضاء التي تغطّي أعلى صدره، ولم يكن لديّ شك بأنه يأتي من ماضٍ سحيق أو أنه لا ينتمي إلى زمننا وعالمنا. كانت في دكانه نارٌ مشتعلة يُدخل اليها قضبان المعدن فيخرجها حمراء، وقد دُهشت مرّةً في ذلك الصباح حين توقّف والدي، الذي

كنتُ أرافقه، أمام دكانه وحدّثه بودٍّ ظاهر. وسمعته يروي مرّةً أن الشيخ علوي يُخرج القضبان المعدنية الحمراء من داخل النار ويمرّرها فوق لسانه حتى تنطفئ فلا يتأثّر. وإلى جانب دكانه يقع دكان الأخرس، وما زال عند مروري في تلك الأمسية حين رأيته واقفاً أمام دكانه كأنه لم يتغيّر أبداً، ممتلئاً، كما عرفته. وانتابتني أفكار ومشاعر متناقضة، من بينها الشعور بأن الأشياء في هذا الموقع من السوق ما زالت على حالها كما عهدتها، أو أنني عدتُ إلى الماضي ربع قرن من الزمن، إلى أيام المدرسة الأولى. والمارّون في الطريق كانوا يشبهون أولئك الذين كنتُ أصادفهم في ذهابي وإيابي، أو هكذا تراءى لي. كانت مدرستنا الابتدائية تقع في هذه الجهة من السوق، وتُعرف بأسماء ثلاثة، فقد نُسبت إلى مديرها الكيلاني الذي استمرّ في إدارتها ثلاث وعشرين سنة منذ تأسيسها وحتى إحالته على التقاعد؛ وعُرفت باسم الحيّ الذي تقوم فيه، وأقلّ أسمائها شهرة هو اسمها الرسميّ. كنتُ أفكّر بهذا التنوّع في الأسماء ومغزاه في هذا المحيط الأهلي الذي لا تقيّده المراسم.

وصلتُ إلى الدرب الذي يحدّه من جهة الغرب خان الوالي ذي البوابة العالية والمقفلة التي ما زالت على حالها كما كنتُ أعرفها، بوّابة عارمة لا مثيل لها في كل المدينة، يقوم في أعلاها عقد مقرنص منوّع التفاصيل الزخرفية لم أتوصّل إلى فكّ رموز هندسته الغريبة. ويقوم الخان لصق مسجد خسرو ذي المئذنة المضلّعة التي عادة ما كنت أتأمّلها عند مروري ناحيتها.

كان ينبغي أن ألتقي بوليد مالك في هذه الناحية إذ قال لي: «ستجدني في دكان الكهربائيات الذي يقوم قبالة بوّابة

الخان». كان زميل دراسة منذ أيام مدرسة الكيلاني، وانتقلنا سويةً إلى المدرسة الثانوية بعد نيلنا الشهادة الابتدائية، وباعدت الأيام بيننا منذ أن اختار الانتساب إلى دار المعلّمين، فانقطعت أخباره عنّي لسنوات طويلة، إلى أن التقيته مصادفة في المقهى الذي أتردّد اليه قبل سنتين، فجدّدنا صداقة قديمة وتذكّرنا الأساتذة وزملاء المدرسة.

وقد احتفظ بطباعه، كأنّ السنين التي مرّت سريعة لم تغيّره. وقد بدا لي مطمئناً، مثل الكثيرين من أبناء المدينة الذين يعتبرون أن أقدارهم قد فُصِّلت وفقاً لقياس هذا المكان الأبدي الذي ينتسبون اليه، وقد قال لي مرّةً إنه لم يغادر المدينة سوى تلك المدّة التي أمضاها مدرّساً في إحدى القرى لمدّة ثلاث سنوات، كان يعود منها في نهاية كل أسبوع إلى مدينته ومنزله. ويقول إن وحدته في غربته قد أفادته في مواصلة الدراسة والحصول على الإجازة في التاريخ. وهو نفسه كان يحدّثني عن حارتنا القديمة كأنها لم تتغيّر، وكيف أنه لا يفكّر بمغادرتها والانتقال إلى الأحياء الحديثة، بالرغم من أن الكثيرين قد تركوها. وقد أكّد لي فكرتي حول الأشخاص الذين يحملون مصائرهم فوق أكتافهم منذ طفولتهم بسبب ثبات في طباعهم، فمزاجه المطمئن جعله يعيش في الماضي الذي لم يبارحه أبداً.

صارت أحاديث التاريخ موضوعاً نطرقه بين الحين والآخر، واكتشفت رؤيته لتاريخ يراه متّصلاً عبر الأجيال؛ تاريخ شفهي، غير الذي درسه في الجامعة، يتموضع في حارات وساحات ودروب. بل اكتشفت موهبة في حفظ الأسماء والأخبار التي يتعمّد جمعها وتدوينها كأنه إخباري أو محدّث، وقلّما اعتنى بتشذيب أخباره. فما يرويه من

أخبار يشبه نمط عيش المدينة وحياتها. فأحسبه أكبر عمراً ممّا هو عليه لأسلوبه الذي يذكّر بطريقة الكهول في سرد الروايات والأخبار. وظهر لي أحياناً أنه يحمل في نفسه ماضي المدينة كأنّه عقيدة أو قضية، يريد أن يبقي جذوة الحياة مشتعلة في تاريخ يندثر، في مدينة تسرع في التبدّل وطيّ صفحة ماضيها. فتكوّن في نفسي بعض الإعجاب لإصراره، وتساءلت، كيف يملك الصبر على جمع هذه الأخبار التي يدوّنها في دفاتر خاصّة ويحرص على حفظها؟ وبسبب إلحاحه، عرف عدداً كبيراً من المسنّين في المدينة، يذهب اليهم ويحضر مجالسهم ويسمع رواياتهم، فاستطاع أن يجمع بعض المخطوطات والكتب التي يسمّيها نادرة.

كان حدّثني عن مخطوطة فريدة تحمل عنوان «الدرّة الثمينة في تاريخ المدينة» للشيخ عبد الرحمن المسيري، يحتفظ بها سعيد النيّان، حفيد المؤلّف، الذي كنّا تواعدنا من أجل زيارته للاطّلاع عليها. كنتُ أسمع بالشيخ المسيري كواحد من علماء المدينة الذين عاشوا قبل قرن من الزمن، وقد ازداد اهتمامي بالمخطوطة إذ قرأت نبذة قصيرة عنها في ترجمة الشيخ المسيري في الكتاب الذي أعارني إياه الأستاذ كامل محرّم. وقد أشاد مؤلّف كتاب «تراجم» بالمسيري ومخطوطته التي لم يسبقه اليها أحد من أقرانه العلماء. وذكر أن الشيخ عبد الرحمن المسيري عالمٌ فذٌّ من علماء الحديث أخذ علومه عن أساتذة كبار ودرس وأفاد وتولّى منصب الإفتاء، وكان من الذين راسلوا الشيخ عبده في مصر، وقرأ «العروة الوثقى» فاشتهر بأفكاره الإصلاحية التي لم يجاره بمثلها علماء زمانه. وذكر الحسني صاحب كتاب «تراجم»: «إن الشيخ المسيري كتب رسالة في تاريخ

المدينة ما زالت مخطوطةً، أنهاها قبل وفاته عام ١٩٢٣ عن عمر ناهز السبعين عاماً. وهي فريدة في بابها، ضمّنها تاريخ المدينة منذ أقدم الحقب وحتى عصره وأفرد فيها باباً لمعالم المدينة وآثارها ومن نبغ فيها من الرجال».

كنّا نقصد زيارة سعيد التيّان في تلك الأمسية، فسرت إلى جانب وليد مالك، في السوق الذي كان يودّع آخر أضواء النهار، ودخلنا في ممرّ ضيق فتبدّل المشهد تبدّلاً حاسماً. واتّجهنا صوب اليمين حين تفرّع الممرّ إلى دربين، فلاحظت أن البوّابات قليلة الارتفاع، حسبت أن من يدخلها يضطرّ إلى الانحناء. كان الدرب المتعرّج قد صار سقوفاً في بعض مراحله، إذ بنيت المنازل فوقه ليعود فينفرج عند ساحة داخلية تقوم عند جوانبها مداخل وبوابات. شعرت أنني صرتُ في باطن المدينة القديمة حيث لا دكاكين بل بوّابات ونوافذ. كانت الحركة قد انعدمت والأصوات تلاشت، فصدّقت خبر السور الذي لا بدّ منه لحماية هذا السكون. في تلك الساعة التي تفصل الليل عن النهار، كان الهدوء يأتي من أعماق الماضي لا يعكّره عبور القلّة من العائدين إلى منازلهم التي تنبعث من نوافذها العالية أنوار شحيحة. وحسبت أن هذه الدروب والأزقّة والمنازل والأدوار ونوافذها وبوّاباتها قد خرجت لتوّها من محفوظات المحكمة، كأنها ليست أدواراً مبنيّة من أحجار بل مجرّد أسطر من الوثائق مكتوبة بحبر كتّاب المحكمة.

يقع منزل سعيد التيّان في تلك الناحية التي تضمّ أكثر من حارة وتُعرف باسم مشترك: «تحت القلعة». وقد ظهر، من زاوية منفرجة غالبت الظلام، أحد جدران القلعة التي تقع في أعلى الهضبة. كانت المحلّة التي نمرّ فيها تحتضن

مساكن السادة والوجهاء في ما مضى من الزمن. وهي المساكن نفسها التي نمرّ بها بدون أن نملك سبيلاً إلى ملاحظة العلامات التي تحتفظ بها من زمن وجاهتها. سرنا في الدرب الذي ازدادت عتمته، وحين وصلنا إلى منعطف، قال لي: «لقد وصلنا». وتوقّف أمام بوابة لا يميّزها شيء عن سواها، وطرق بقبضته، وسرعان ما فتح الباب رجل جاوز الستين، كما بدا لي، عرفتُ أنه صاحب المنزل الذي دعانا إلى الدخول مرحّباً. وجدت نفسي في فسحة مكشوفة أشبه بساحة صغيرة، أنارها بمصابيح كهربائية، وأصص زهور، وكان الهدوء يلفّ المكان، سوى صوت الهواء الذي كان يحرّك الأغصان الصغيرة برفق.

كان سعيد التيّان سليل عائلتين من عائلات الأرستقراطية الدينية. فجدّه، لجهة والده، كان الشيخ محمد التيّان قد زوّج ابنه رشيد لابنة المسيري الوحيدة السيدة فاطمة التي أنجبت سعيداً وأورثته منزل والدها عالم عصره. لكنّ سعيداً لم يرث مهنة العلم عن أجداده. ففي تلك الفترة من بدايات القرن، كان أبناء العلماء يتحوّلون الى مهن أخرى، كالتجارة خاصّة، تاركين الوجاهة التي احتفظوا بها لأجيال سابقة، لسادة جدد يحترفون السياسة والأعمال.

شعرت ببعض الغرابة للمفارقات التي تجمّعت في تلك اللحظة في الفسحة التي يلفّها صمت تكثفه الأحجار التي بنيت بها المنازل قبل بضعة قرون. فهذا المنزل الذي وُلد فيه الشيخ المسيري في منتصف القرن السابق كانت فيه العائلة منذ بدايات القرن الثامن عشر، كما ذكر لنا سعيد التيّان، الذي بدت عليه ملامح الاطمئنان التي يشترك بها أبناء المدينة الذين يعتبرون مدينتهم المكان الوحيد الذي يمكنهم أن

يسعدوا فيه، إلا أنهم يشعرون بأن أمراً يتهدّد سعادتهم واطمئنانهم. قال سعيد التيّان بعد أن سألته عن عمر المنزل: «لا بدّ أنه يعود الى نهاية الفترة المملوكية، تدلّ على ذلك علامات كثيرة في طريقة البناء. ولكن المؤسف أن المنازل هنا قد أهملت في السنوات الأخيرة إهمالاً شديداً بعد أن غادرها أهلها الى المنطقة الحديثة من المدينة». وأضاف: «نحن من بين آخر العائلات التي بقيت في الحيّ، ويصعب عليّ أن أترك بيت أجدادي».

وتابع بشيء من الحسرة: «ابني البكر تزوّج وسكن في جادّة الاستقلال، وهو لا يأتي الى زيارتنا إلاّ مرّة كل أسبوع. أما زوجته فلا تأتي إلينا إلاّ مرّتين في السنة في مناسبتي العيدين، وتقول إنها لا تستطيع أن تمشي كل هذه المسافة لتصل الى المنزل». وابتسم كأنه أفشى لنا سرّاً من أسراره العائلية الصغيرة، وتابع حديثه: «مع أنني اقتربت من السبعين، فإنني ما زلت أنزل إلى متجري في السوق كل صباح وأعود بعد العصر، وقد فعلتُ ذلك طوال حياتي كما فعل والدي من قبل».

حسبتُ أننا وحيدون في هذه الدار الواسعة، قبل أن تخرج شابّة تحمل فناجين الشاي، قال: «إبنتي ناديا وقد تخرّجت السنة الماضية من الجامعة وهي في زيارتنا اليوم، لأنها تفضّل أن تبقى عند أخيها!». فتدخّلت الشابة قائلة: «إنني أحبّ هذا المنزل الذي وُلدت فيه، ولكنه لم يعد عملياً على الإطلاق، يمكن التفكير بتحويله الى شيء آخر... ولكن لا أدري ما هو؟».

بدت المسافة بعيدة بين الشيخ المسيري الذي كان يراسل محمد عبده في القاهرة وبين ابنة حفيده خريجة الجامعة التي

تبحث عن عمل منذ تخرّجها.

كانت لحظات من تواريخ مختلفة تتجمّع وتتبدّد في تلك الفسحة الصغيرة. سألني سعيد التيّان عن اهتماماتي، فكان ردّي مقتضباً، فقال: «الكتب في منزلنا جزء من تراث العائلة»، وأضاف: «لطالما قرأت في المؤلّفات والكتب التي تركها جدّي، وقد احتفظت بها كما كانت، وقد قرأت بعض ما فيها منذ سنوات طويلة، كما اقتنيت في شبابي بعض الكتب مثل «التمدّن الإسلامي» الذي أعود لأقرأ صفحات منه بين الحين والآخر». وتوقّف عن الكلام لبرهة ثم قال: «ولكن الزمن قد تغيّر».

صعدنا الى الطابق العلوي من المنزل ودخلنا الى غرفة في أعلى الدرج الحجري، وقال: «إنها الغرفة التي كان يقرأ فيها الشيخ جدّي ويكتب. كانت غرفة صغيرة ليس فيها غير الكتب والمخطوطات». قلّبت بعض الكتب منها للسيوطي، والأصبهاني. ونسخة من «ألف ليلة»، وأخرى للخطيب البغدادي والعسقلاني، والترمذي والبخاري، وكتب في الجرح والتعديل وطبقات المحدّثين، ولفتني طبعة من «تاريخ الطبري» تعود الى ثمانينات القرن الماضي. كان سعيد التيّان قد رتّب المخطوطات في خزانة مستقلّة، وأغلبها من تدوين الشيخ المسيري، بينها «خلاصة في الفقه»، و«رسالة في أدب الحديث»، بالإضافة إلى «الدرّة الثمينة في تاريخ المدينة».

قلت لسعيد التيّان: «إن وليد مالك، حدّثني عن هذه المخطوطة الفريدة، وقد ازداد اهتمامي بها، لأنني قرأت منذ أيام قليلة عنها في كتاب نادر، ومن المؤسف أنها لم تطبع». فأجابني: «في أيامنا لم يكن أحد يأبه بتاريخ المدينة، ولم

يكن ثمّة مَن يتذكّر الشيخ المسيري، إنني أشكر اهتمامكم، وأتمنّى بعد هذه السنوات الطويلة من العمر، أن أرى هذه المخطوطة قد طبعت».

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً حين غادرنا منزل سعيد التيّان. فسرنا في دروب مقفرة والصمت يلفّ الأحياء التي نخترقها، فلا نسمع سوى وقع خطواتنا. وقد رافقني وليد مالك حتى ساحة الدويدار التي بدت في تلك الساعة من الليل غير ما كانت عليه ساعة المغيب. ففي الزاوية الشمالية كان مصباح كهربائي يضيء حلقة من الجالسين على كراسي كأن مقهى ليليّاً قد انبثق لتوّه. وشعرت بأن شيئاً من النشاط يصارع السكون. وتابعت سيري صوب الجهة الأخرى من المدينة، وأحسست بنسمة باردة تسري في شوارعها.

II

تأمّلت في الصفحة الأولى التي أرادها المؤلّف بمثابة غلاف، وكانت بحالة جيّدة لولا تآكل في أطرافها العليا. وقد كتب العنوان في وسط الصفحة «الدرّة الثمينة في تاريخ المدينة». وإذ جعل العنوان بالحبر الأحمر، فقد كتب في أسفلها بخطّ نسخي وبحبر أسود «تحرير الفقير الشيخ عبد الرحمن المسيري مدرّس الحديث الشريف». تساءلتُ: هل بقي أحد في المدينة يحفظ الحديث ويدرّسه؟ وفي الصفحة الثانية قدّم لكتابه بتوطئة ذكر فيها ولعه بأخبار المتقدّمين وكتب التاريخ، وقال: «إن المنهج الذي اتبعته هو منهج أهل الحديث في الجرح والتعديل وتمحيص الرواية وإثبات

سندها». وأضاف: «بعد أن قرأت الكثير من كتب السالفين الذين ذكروا المدينة في مؤلّفاتهم الخطيرة، جمعتُ منها ما رأيته نافعاً ومفيداً. وأضفت ما سمعته من الكبار في حداثتي، ومن أساتذتي في أيام طلبي، وما رأيته وخبرته في سنوات حياتي. وها أنا أبدأ في كتابة هذا التاريخ وقد تجاوزت الستّين سنة ١٣٣٤ من الهجرة الشريفة، وأردت له أن يكون ذكرى وللقرّاء عبرة».

قلّبت الصفحات ببطء التاريخ الذي تضمّه، فقد أراد الشيخ المسيري أن يبدأ من أبعد العصور، كأن المدينة هي ذاتها منذ أن بُني أول حجر في هذا المكان. إلا أنه لم يأخذ الأمر إلا باعتباره تقليداً وجده عند غيره ممّن ألّف في التاريخ. لكن العمر الواعي للمدينة يبدأ مع دخولها في عصر فتوح العرب، فيبدّل أسلوبه ومفرداته كأن المدينة دخلت في عمرها الراشد، فيدمج سيرتها مع سير الخلفاء. ولا تصبح الأخبار معنية بالأشخاص والمعالم إلا مع القرن الرابع الهجري. وتتّخذ روايته طابعاً مأساويّاً مع وقوع المدينة تحت سيطرة الفرنجة وما أصابها من محنة، ويقول «احتفظت المدينة من تلك المدّة بالحصن الذي يقوم فوق الهضبة ويشرف على المدينة».

ولا يصبح التاريخ موثوقاً إلاّ مع دخول المدينة في حوزة المماليك، دور من أدوار التاريخ يبدي المؤلّف تجاهه تعاطفاً وإجلالاً لسلاطينه ونوّابهم، يقول: «تلك الدروب التي نسلكها والأسواق التي نطرقها والمساجد التي نؤمّها إنما تعود الى عصر سلاطين المماليك، وهذه الصروح أقامها السلاطين والنوّاب والتجّار والقضاة، فصارت المدينة درّة التجارة والزراعة في ذلك العصر». وينقل مستشهداً مقاطع

من العمري والقلقشندي من مؤرّخي ذلك الزمان وكتّابه.
وحين يصل الى تاريخ بني عثمان، كما يسمّيه، يبدّل طريقته في السرد فيجعلها تبعاً لمدّة الولاة، فيصبح تاريخ المدينة ملحقاً بإدارة الدولة. وكلّما تقدّمت الرواية في الزمن كلّما اتّسعت التفاصيل وتواترت الأخبار حتى يصل الى المدّة التي شهدها وكان لا يزال صبيّاً صغيراً، حين أخذ يدرس العلم في مكتب الشيخ أحمد الديري، وانتقل بعدها الى المدرسة الظاهرية ثم سافر في طلب العلم الى مصر، فأخذ القصة والحديث والتفسير عن كبار علماء العصر، وحين عاد الى مدينته بعد سبع سنوات، رأى أن العالم قد أخذ بالتبدّل، فصار الناس يطلبون الصنائع، وبرزت عادات لم تكن من شيم أهل المدينة، وخرج بعضهم الى ظاهرها وبنوا المنازل والعمائر. فاستبشرنا خيراً بالإصلاح المنشود لكنّ الأمور لم تمض كما اشتهى العقلاء، إذ ابتعد الناس عن الدين وغرّتهم أحوال الدنيا، وما زال الحال على هذا المنوال حتى كانت الحرب الكونية الكبرى قد نشبت فافتقر الناس واضمحلّت الأعمال وضجّ الخلق من سوء الأحوال.

قال الشيخ في الصفحات الثلاث الأخيرة التي جعلها خاتمة تحت عنوان «حُسن العاقبة»: «ها قد مضت سبع سنوات منذ عقدت العزم على كتابة تاريخ المدينة. ولم أكن مدركاً آنذاك لتلك الأهوال التي تخبئها لنا الأيام، والتي كانت في علم ربّ العالمين. فقد توقّفت مرّات عديدة عن الكتابة والبحث عن الوقائع والأخبار. وقد مرّت بي أوقات من القنوط نسيتُ معها الكتابة واستصغرت شأنها إزاء ما واجهناه من شظف العيش ومعاناته. فلطالما انصرفنا عن شؤون أنفسنا لهول ما سمعنا ورأينا، فقد كان الناس في

عبر السور والبوّابات

حيرة من أمرهم لا يعرفون إلى أين المصير وإذا كان الله تعالى قد منّ علينا بنعمته وجنّب مدينتنا الخراب والدمار، إلا أنه امتحننا في قوتنا وعيالنا. فكم من عائلات جاعت وتجارات بارت، فتبطّل الرجال وأقفل البحر والبرّ، وكم من أبناء ذهبوا إلى ساحات الوغى البعيدة ولم نعد نسمع من أخبارهم شيئاً.

إلا أن ذلك كلّه لم يكن سوى النذر اليسير أمام ما انطوت عليه الحرب التي أسموها الكونية الكبرى، من عواقب لم يأت ذكر مثيل لها في ما تقدّم من ذكر الوقائع وما تأخّر. فقد خرجت دولة الخلافة من ديارنا، فصرنا بلا وليّ، وقد ألغوا السلطنة، ونسمع اليوم أنهم يريدون إلغاء الخلافة، فبئس ما فعلوا وبئس ما يخطّطون».

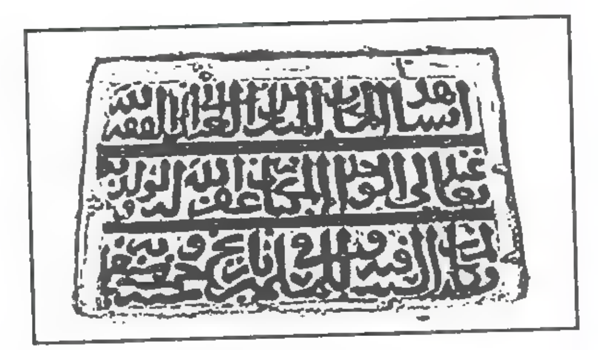
ويتابع الشيخ: «إن مدينتنا التي عرفت العزّ والانتصار في أزمان بعيدة ما فتئت أحوالها تتردّى منذ ما ينيف على المئة من السنين، منذ أن تسلّط على أمرها صغار القوم الذين لبسوا لباس الحكّام، فاستضعفوا الدولة المشغولة بالحروب مع أعدائها، فتملّكوا ونهبوا وتسلّطوا ونصّبوا أنفسهم أمراءً وحكّاماً. وحين أرادت الدولة إصلاح ما تخرّب، أعلنت التنظيمات الخيرية، فازداد الخلل واتّسع الصدع، فابتعد الأبناء عن دين آبائهم، كأنّ العلم قد أصابه العقم، فأرسلوا أولادهم إلى معاهد المبشرين ومدارس المتفنّنين يريدون الدنيا بعد أن غاب عن أفئدتهم ذكر الله. بل أن أبناء السادة العلماء والوجهاء الأجلاّء غادروا مدينتهم وابتعدوا عن ديار آبائهم وأجدادهم، وقلّدوا الأجانب في بناء الدور خارج المدينة». وقال: «لقد صدقت رؤيا الشيخ العطيفي الذي زار مدينتنا قبل ثلاثمائة سنة، فقد رأى أن

الرمل الزاحف سيكون سبباً في خراب المدينة. ولكن أهالي المدينة هم الذين استعجلوا خراب مدينتهم وزحفوا صوب الرمل حيث بنوا دورهم وقصورهم، نجّانا الله من سوء العاقبة».

وختم: «لقد بلغت من العمر آخر أيامي، وقد شاء الله تعالى أن أرى تلك المصائب والأهوال. وأن أشهد سوء المآل، فها هم أبناء الأصول والسادة الفحول يجعلون من الفرنسيس أولياء أمورهم، يستشيرونهم في الكبيرة والصغيرة، ويطلبون مرضاتهم وينسون مرضاة الله، ويدخلونهم دورهم ويكشفون لهم أسرارهم ويقلّدونهم في أقوالهم وأفعالهم، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله. انتهى في شهر رجب الخير من شهور سنة ١٣٤١ هجرية».

لم أستطع أن أدرك السبب العميق الذي دفع الشيخ المسيري إلى كتابة تاريخ المدينة، وهو أول من فعل ذلك. إلا أنني أدركت بأن هذه المدينة التي عاش ومات فيها هي مثال على العالم الذي ينتمي اليه، وتجسيد للدين والإيمان كما عاشهما. وقد لاحظت أن الشيخ يقسم تاريخه إلى قسمين، الأول هو النموذج والثاني هو الابتعاد عن الأصل. ولعلّ الدافع الخفيّ للشيخ في تأليفه كان خوفه على هذا المثال من التلاشي والاضمحلال، فكتب ما أراد أن يكون عبرة، كما قال في الصفحة الأولى من الكتاب.

زيارة لمنزل في الساحة العامّة



I

يقع المبنى الذي كنّا نقصده في المساحة خارج السور الوهمي الذي يفصل المدينة القديمة عن العمران الحديث. وهو واحد من مبان عديدة تتميّز بنوافذ مرتفعة وزخارف في واجهاتها الأماميةَ، أقرب إلى النمط الإيطالي العائد لبدايات القرن، وتشكّل مجتمعة النواة التي أعطت الساحة العامّة هويتها. والمبنى الذي يسكنه أمين سريّ الدين لم يكن يبعد عن مقهى الزهراء أكثر من ثلاثة مبان. ولطالما مررت أمامه حين كنتُ أقصد الساحة العامّة. وكثيراً ما لفتت انتباهي واجهته التي تحتفظ بشيء من أبّهتها الآفلة. ولم يكن خطر في بالي أن أناساً يسكنون في هذه الناحية من الساحة العامّة التي يرتفع ضجيجها في النهار وتغدو موحشة في الأمسيات.

كان وليد مالك، الذي يرافقني في هذه الزيارة، هو الذي اتّصل بي وأخبرني أن أمين سريّ الدين يدعونا إلى لقاء في منزله لنتداول في بعض الأمور ولنطّلع على دراسة المستشرق شاتليه حول آثار المدينة.

لم أكن أعرف أمين سريّ الدين قبل لقائنا في منزل

كامل محرّم. ولكني كنت أعرف أن عائلته قد لعبت دوراً مهمّاً في المدينة منذ بدايات القرن. ووجدت في كتاب «تراجم»، وقد بتّ أعتقد أن كامل محرّم قد قدّمه لي عن قصد، ترجمة لعبّاس سريّ الدين الجدّ المباشر لأمين الذي كنّا في طريقنا إلى زيارته. وقد جاء في الترجمة أنه واحد من ألمع وجوه المدينة، وُلد عام ١٨٦٥ وعمل في التجارة التي برع فيها، وجمع ثروة طائلة. عُيّن قنصلاً لهولندا، فصار وجهاً معروفاً. قصد اسطنبول حيث اتّصل برجال الدولة. وبعد عودته، صار عضواً في مجلس الإدارة، وصارت كلمته نافذة في المدينة. وتذكر النبذة أنه هو الذي بنى أول عمارة في الساحة التي كانت خلاء فاستهجن أهل المدينة هدره أمواله في تلك الأرض الموحشة، لكن عبّاس سريّ الدين كان بعيد النظر، فسرعان ما صارت تلك الساحة ميدان المدينة الحديث.

وثمّة أسرار كثيرة تحيط بسيرة عبّاس سريّ الدين لا تذكرها النبذة في كتاب «تراجم». فهناك من يقول إن ثروته قد جمعها من أعمال التهريب غير المشروعة. وقد قيل أيضاً إنه جعل منزله الذي بناه مقرّاً لأول محفل ماسوني في المدينة، واتّهم بأنه كان تاركاً للصلاة والشعائر. لكن من المؤكّد أنه كان من أوائل الذين ساروا في تيّار التحديث الذي تعلّمه من الأتراك الذين كانوا متأثّرين بالأفكار الفرنسية العقلانية، وقد أتقن الفرنسية وزار أوروبا، وحين أراد أن يبني عمارته، أحضر مهندساً إيطالياً ليرسم له مخطّطها.

حين وصلنا إلى الشارع الذي يقوم فيه المبنى، كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة مساءً، والأضواء توزّع النور

في زوايا الساحة فبدت وقد سكنت جلبتها، أقرب إلى ما كانت عليه أيام زهوها. وكان المدخل إلى المبنى يقوم في ممرّ خلفيّ، تقدّمني وليد مالك خطوتين وصعد بضع درجات من الرخام تذكّر بمضيّ السنين، فتبعته. بتنا لحظات منتظرين بعد قرع الجرس، وحين فُتح الباب برزت الخادمة المسنّة التي قالت لتوّها: «السيد ينتظركم في الداخل». وبدا لي وليد مالك أنه يعرف تقاليد المنزل اذ عبر القاعة الأمامية وتوجّه الى أخرى داخلية، وقال لي: «سيحضر بعد قليل». وجلست على واحد من المقاعد الخشبية المبطّنة بالمخمل والمحفورة بأشكال الزهور. وكان السقف المرتفع مزخرفاً وملوّناً بالأزرق والزهري. ولفتت انتباهي سيوف مذهّبة معلّقة على أحد الجدران. كان المنزل من الداخل يختلف عن مظهر المبنى الخارجي، فكل شيء يبدو في موضعه، وأنه استقرّ في مكانه منذ أمد بعيد. قطع وليد مالك الصمت قائلاً: «هل ترى الفرمان المعلّق على الجدار؟». فالتفتّ خلفي لأرى لوحة معلّقة بإطار مذهّب، وهممت بالوقوف لأقرأ ما بداخلها، حين دخل أمين سريّ الدين مرحّباً، وقال: «إنها فرصة أن تكون بيننا اليوم، وسيكون أمامنا متّسع من الوقت لنتحدّث في أمور كثيرة». وتابع، مشيراً إلى اللوحة التي كنت أهمّ بتفحّصها: «هذا الفرمان صدر عن السلطان بمناسبة حصول جدّي على الباشوية». وتوجّه إلى المقعد الذي حسبت أنه مقعده الخاصّ الذي يجلس عليه كلّما استقبل زوّاره.

بدا لي أمين سريّ الدين في وسط العقد السادس من عمره، وكان يميل إلى البدانة، لكن قامته المديدة جعلته يبدو ممشوقاً في بذلته القاتمة وربطة عنقه المزركشة. رفاهية عيشه،

كما تخيّلت، جعلته يبدو أصغر من عمره. قلتُ، محاولاً أن أبدّد الصمت الذي خيّم لتوّه في القاعة: «إن منزلك من الخارج لا يوحي بما في داخله». فتقبّل ملاحظتي بابتسامة وأجاب: «إنني لا أؤخذ بالمظاهر أبداً، وأحبّ أن أقوم بعملي بصمت»، وتابع: «أنا مولع بالأشياء القديمة والمخطوطات وبالتفاصيل التي تعبّر عن تغيّر العادات من جيل إلى جيل، فهناك الآثار العمرانية الهامّة، ولكن هناك النقود والمخطوطات والخشبيات والنحاسيات وقطع النسيج التي تخلق، مجتمعةً، التراث الذي نريد أن نحافظ عليه وتخلق لدى الأجيال الجديدة حاسّة تذوّق تاريخهم». وافقته على كلامه وقلت له إن عملنا لا يمكنه أن يشمل كل هذه المظاهر، فهذه تحتاج إلى جهود كبيرة وإلى وقت طويل ولعلّنا نستطيع أن نخطو أولى الخطوات في هذا المجال.

كان حديثنا يدور في العموميات إلى أن سألني: «عرفت أنك تهتمّ بالمخطوطات». فوجدتها مناسبة لأسأله عن دراسة شاتليه. قلت: «أخبرني وليد أنك تملك نسخة من دراسة المستشرق الفرنسي شاتليه، وقد بحثت عنها ولم أجدها، فكيف حصلت عليها؟». قال وقد سرّ لسؤالي: «لديّ العديد من المخطوطات والدراسات النادرة أو شبه النادرة، بعضها ورثته عن جدّي ووالدي، وأخرى حصلتُ عليها بعد أن بذلت جهداً للوصول إليها، وقد دفعت في بعضها أثماناً مرتفعة. امّا هذه دراسة فلها قصة، وإنك ستستغرب لو عرفت أن المستشرق فيليب شاتليه قد أعدّ دراسته في هذا المبنى بالذات، وكان جدي قد استقبله، فلامه أهل المدينة لإدخاله غريب إلى منزله. لكن، كما تلاحظ، فإن هذا المبنى مكوّن من ثلاثة طوابق وقد أقام

الضيف في الطابق الأخير حيث كان يعمل ويستقبل العلماء والوجهاء».

صمت للحظات ثم تابع: «كان جدّي عضواً في مجلس الإدارة، وحين جاء الوالي إلى المدينة أشار على الذين استقبلوه، ببناء العمارات الحديثة في هذه الساحة، فكان جدّي من بين أول الذين استجابوا لهذه الدعوة». وتطلّع صوبي وسألني: «تريد أن تعرف كيف وصلت الدراسة الينا؟» ثمّ أجاب لتوّه: «بعد مغادرته المدينة بوقت يتجاوز السنتين، حسبما روى لي والدي، أرسل شاتليه بالبريد نسخة من مجلّة الدراسات الشرقية التي تصدر في باريس، وفيها دراسته المعزّزة بالرسوم والصور الفوتوغرافية التي صوّرها بآلته التي كان يحملها في كل خروج له من المنزل. والمجلّة ما زالت لدينا من بين كل الأشياء التي ورثناها عن جدّي». وقام لتوّه إلى الخزانة الخشبية وأخرج المجلّة وقدّمها لي. وقرأت على الغلاف الخارجي عبارة إهداء: «إلى سيدي العزيز عباس سريّ الدين، إنني مدين لك بالكثير لحسن ضيافتك التي لا أنساها طوال حياتي. فيليب شاتليه، ١٤/٢/١٩٠٧».

ساد صمت قصير بعد أن فرغ أمين سريّ الدين من كلامه، فسألته إذا كنتُ أستطيع الاطّلاع على نصّ الدراسة، فقال، كأنه أعدّ كل شيء مسبقاً: «لقد صوّرت لك نسخة يمكنك الاحتفاظ بها»، فشكرته على لباقته.

في هذه الأثناء دخلت سيدة مرحّبة. وتوجّهت صوب وليد مالك الذي نهض، فصافحته ثم توجّهت صوبي، وكنت قد وقفت لتوّي، فمدّت يدها فصافحتها، وأسرع أمين سريّ الدين إلى التعريف بي، وقال: «زوجتي نوال،

إنها تهتمّ بالآثار وتعدّ بحثاً في الموضوع»، لكنها علّقت بعد أن جلست على أحد المقاعد: «إنني لا أزال في البداية. وأجد صعوبة في العثور على مراجع». وأضافت بعد أن أشارت إلى مجلة الدراسات الشرقية: «لقد قرأت دراسة شاتليه، وقد استفدت منها كثيراً... خصوصاً أنني أفضّل القراءة بالفرنسية». فتدخّل أمين سريّ الدين وشرح لي: «إنها تلميذة راهبات، في الأصل، وقد درست الآداب في الجامعة اليسوعية». وحين أنهى توضيحه نظرت اليّ وقالت: «أرجو أن تقرأ الدراسة، وتعطيني رأيك فيها». فقلت: «في أقرب وقت ممكن».

كنّا نهمّ بالانصراف، بعد مضيّ ساعة على زيارتنا، ولكن أمين سريّ الدين طلب إلينا البقاء، إذ إنه ينتظر ضيوفاً و يسعده أن ننضمّ إلى سهرتهم. ولم يكن قد أنهى عبارته حتى حضر المحامي توفيق عبدالله الذي عرّف به صاحب المنزل: «توفيق صديق قديم وهو محامي العائلة».

دعانا أمين سريّ الدين للانتقال إلى القاعة الرئيسية، ولم تمض دقائق حتى اكتمل المدعوون: حسّان معمارباشي وزوجته جمانة، المهندس نقولا الهندي وزوجته سونيا، وحضرت السيدة هند الأشرفي مع ابنها سعد. وشعرت بشيء من القلق، كعادتي حين أجد نفسي بين أشخاص لم يسبق أن التقيت بهم، خصوصاً أنني لم أكن مستعداً لهذا اللقاء. فقد حضر الجميع بلباس السهرة وتحسّست ياقتي وتذكّرت أنني لم أعقد ربطة عنق منذ عدّة أشهر.

كان الجميع قد غرقوا في أحاديث جانبية، حين توجّه المحامي إليّ بالحديث قائلاً: «عرفتُ أنك تهتمّ بتاريخ المدينة، وهذه فرصة جيدة، فالسيدات عضوات في جمعية

الحرف التراثية، ولا شكّ بأنهنّ يرغبن في الاستفادة من معرفتك». ثم حاول أن يلفت انتباه الحاضرين، فتوجّه بالسؤال الى هند الأشرفي: «هل تعرفين أن الأستاذ مهتمّ بتاريخ المدينة، ولا بدّ أن لديه ما يفيدكنّ في مشروعكنّ». فتطلّعت صوبي السيدة التي لا تزال تحتفظ بمسحة من جمال وأناقة، وقالت: «بدون شك، فإننا نعدّ مشروعاً من أجل إقامة أسبوع لإحياء الحرف التراثية، ونرغب أن تنضمّ الينا، فلدينا الكثير من الأمور التي سنحتاج اليك فيها»، فأجبت باقتضاب: «سيكون هذا من دواعي سروري».

وتدخّلت نوال سريّ الدين قائلة: «لقد اكتشفنا أشياء كثيرة خلال عملنا وخصوصاً حين قمت مع سونيا بزيارة لسوق المدينة القديمة، خلال الشهر الماضي، وهي المرّة الأولى التي أدخل فيها الى السوق. وقد ذكّرتني بأسواق القاهرة التي زرتها مع أمين منذ سنتين».

وكأن أمين سريّ الدين شعر بشيء من الحرج فقال معقّباً: «زوجتي تنتمي إلى الجيل الجديد الذي لا يعرف مدينته وأسواقها وآثارها»، وأضاف: «لا بدّ من عمل كبير من أجل تعريف الشباب بمدينتهم وأهمّية تراثها». ونظر إلى سعد الأشرفي وسأله: «أليس كذلك يا أستاذ سعد؟»، فأجاب: «بكل تأكيد، إنني منذ عودتي إلى المدينة، لا أتوقّف عن التفكير بما ينبغي أن نفعله من أجل أن تستعيد دورها»، وأضاف: «هناك أمور كثيرة ينبغي أن يقوم بها الشباب المتعلّم لخدمة هذه المدينة وحفظ تراثها».

كنت صامتاً حين عادوا إلى أحاديثهم الجانبية، وتخيّلت الحاضرين يأتون من زمن بعيد، ويخرجون لتوهّم من صحفات كتب قديمة، وتخيّلت المدينة آثاراً وبيوتاً عتيقة

وذكريات. كانت هند الأشرفي لا تنفكّ تتحدّث عن سعد الدين الأشرفي وزمنه، وهو نفسه الذي قرأت عنه في كتاب «تراجم». أما حسّان معمارباشي، فذكر أنه يخطّط لترميم البناء الذي أقامه جدّه نجيب معمارباشي التاجر الذي كان في بدايات القرن قنصلاً لبلجيكا ووجيهاً من وجهاء المدينة شارك في تأسيس فرع لمصرف سالونيك وهو أول مصرف في المدينة، وقلت في نفسي إن نقولا الهندي لا بدّ أن يكون حفيد جرجس الهندي الوجيه الأرثوذكسي الذي أسّس في العشرينات جريدة «روضة المعرفة» وانخرط في سياسة تلك المرحلة. وحسبت الحاضرين يمكثون في ماضيهم أكثر من حاضرهم، ويظنّون أنفسهم، كآبائهم وأجدادهم، نخبة المدينة ووجوهها البارزة، مع أنهم يعيشون في الظلّ ولا يعرف أحد كيف يعيشون وأين.

عند خروجنا من المنزل، كان الصمت يلفّ الساحة العامّة، سرت مع وليد مالك صامتين. كان الهدوء أشبه بهواء ثقيل يحاصر شوارع المدينة. وعند وصولنا الى مفترق دار البلدية افترقنا، على أن نلتقي في وقت قريب.

II

احتلّت دراسة شاتليه ثلاثاً وستّين صفحة من مجلّة «الدراسات الشرقية». وقد عزّزها المؤلّف بالصور والرسوم. ومهّد بمقدّمة تناولت تاريخ المدينة وحاضرها. وأورد معلومات راهنة تعود إلى الفترة التي قضاها في المدينة، يقول فيها إنها مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكّانها خمسة وعشرين ألف نسمة، ثلثهم من الأرثوذكس

والملكيين والإنجيليين. ويعدّد مساجدها وحمّاماتها ومدارسها وكنائسها. فيحافظ جميع أبناء المدينة مهما اختلفت أديانهم على عاداتهم وطقوسهم، فلا يختلف بذلك المسلمون عن المسيحيين. ويقول إن رياح التحديث قد طرأت عليها منذ أمد قصير وأبرز مظاهرها العصرية السرايا الجديدة وبضعة مقاه تقوم في ساحتها إلى جانب دار البريد والمصرف ودائرة الشرطة ومدرسة الصنائع. وهذه الساحة تقوم خارج نطاق المدينة القديمة. وعن حالة العلم، يقول إن رجال الدين في جميع الأديان هم الذين يمسكون بزمام العلم، ولا يستثنى من ذلك سوى الذين تلقّوا العلم خارج المدينة. إلا أن التعليم العصري تسعى اليه المدارس التي افتتحها المرسلون الغربيون وكذلك المدرسة الوطنية التي افتتحها وجهاء الطائفة الإسلامية، ومنها مدرسة افتتحها العلمانيون في الطائفة الأرثوذكسية. ويقول شاتليه إن الأمل برقيّ المدينة يتوقّف على اتّساع رقعة المتنوّرين، ومثال عليهم عبّاس سريّ الدين الذي ضرب ببعض التقاليد القديمة، وهو يقيم في دارته في ساحة المدينة الحديثة لقاءات يتداول فيها التجّار والوجهاء أخبار السياسة وأحوال مدينتهم، وقد حضرت أحد لقاءاتهم تحدّثوا فيه عن أملهم بانفتاح مدينتهم عبر خطّ الحديد الذي يرجون أن يصلهم قريباً ليربطهم بالعالم عبر القطارات التي تحمل البضائع والأفكار، كما يأملون بنشاط مرفأهم حتى تصبح المدينة مرفأ الشرق فتدبّ فيها التجارة والبناء.

وذكر شاتليه أن أفكار التحديث ما زالت تشغل حيّزاً ضيّقاً إزاء التقاليد الراسخة والمحافظة. ومن ذلك ملاحظته بأن أولئك الذين يأتون إلى الساحة في الأمسيات قاصدين

متنزّهها الذي زرعت فيه الأشجار وصفّت فيه المقاعد الخشبية، ما زالوا قلّة بالمقارنة مع اكتظاظ أسواقها القديمة وقلّما نرى المرأة تمشي إلا مصحوبة برجل، علماً بأن جميع النساء من جميع الأديان يحتفظن بغطاء الرأس. ويقول: إن تلك اللقاءات التي حضر أحدها في منزل عبّاس سريّ الدين شبه نادرة، فما زال رجال المدينة متقيّدين بأفكارهم المحافظة وبولائهم للسلطان، ويحضّرون حلقات الذكر التي تحييها طرق التصوّف، وأبرزها الرفاعية والنقشبندية والمولوية التي لا تزال تحتفظ بمقرّها الذي بني منذ أكثر من ثلاثة قرون.

ويقول في ختام مقدّمته، إن أمل المدن في هذا المشرق بمتنوّريها الذين لا زالوا قلّة من المعجبين بحضارة الغرب وتمدّنه، بالرغم من أن معلوماتهم عمّا يجري في دول العالم قليلة وتصل اليهم متأخّرة. وإن الذين يحسنون لغة أوروبية قلّة بين هذه القلّة. ويذكر ما سمعه من دومينيك لافوريه، أبرز الشخصيّات الفرنسية في المشرق: أن فرنسا، إذا ما قُيّض لها أن تلعب دوراً في هذا المشرق، فلا بدّ لها من أن تتعاون مع أولئك المتنوّرين المأخوذين بحضارة أوروبا.

وبخصوص آثار المدينة، يقول إنها مدينة قديمة عرفت منذ أيام الفينيقيين لكن آثارها القديمة، وخصوصاً الفينيقية والرومانية، ما زالت تحت الأنقاض وطبقات الرمال المتراكمة. وليس فيها من الآثار الظاهرة سوى ما خلّفه الصليبيون والمماليك علماً بأن سلطان المماليك الذي فتح المدينة قد أمر بهدم المدينة القديمة وبناء أخرى جديدة بعيدة عن شاطئ البحر، وهذا ما فعله المماليك في عدد من مدن

الساحل خوفاً من هجمات بحرية محتملة. ودراسة شاتليه عن آثار المدينة عبارة عن قراءة في النقوش والزخارف، وفي نصوص الوقفيّات المحفورة. لهذا فانه ينسب كل ما يكتبه إلى مصدر، ويهتم بمعرفة أحوال البناء ومواده. لأنه مؤرّخ قبل أن يكون آثارياً، يهتمّ بتسجيل الوقفيّات التي حُبست للإنفاق على المباني والعمائر التي يدرسها. فيبحث في الفئات التي كانت تعمّر المدينة، وأولها رجال الدولة من الأمراء، ويأتي بعدها التجّار من أصحاب الثروات، ونبّه إلى أهمّية الوقفيّات في تاريخ المدينة واجتماعها. وقد سجّل في وسط النصّ الفرنسي أسطراً بالعربية، هي عبارة عن نصوص حفرت فوق بوّابات المباني من مساجد وحمّامات ومدارس ومنها: «أمر بإنشاء هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى، مولانا المقرّ الأشرفي العالي» وقف عليه لمصالحه المعينة في كتاب وقفه جميع البستان المعروف بالحموي وجميع الحانوتيين الملاصقين لبابه وجميع البستان المعروف قديماً بالطنطاش بالسقي وجميع الحانوتيين الملاصقين بسوق السلاح بجوار الحمّام المعروف وهي الآن ملك الوقف، وجميع ثلث الخان المعروف بدار الوكالة القديمة... وشرط أنه مهما فضل من ريع هذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعيّنة في كتابه يصرف للفقراء والمساكين».

ويشير شاتليه الى الإهمال والخراب اللذين أصابا بعض الآثار والمعالم التي عاينها، فيذكر «عند الضفّة اليسرى من النهر الذي يخترق المدينة، وقرب المحلّة المعروفة بالزينية، فإن المسجد المعروف باسم الأذري مهمل وتسكن بعض غرفه عائلة». ويذكر في معرض آخر: «أن المبنى الواقع

أمام المسجد الظاهري هو مدرسة في الأصل ولكنها أهملت ولا تستخدم إلاّ كمستودع لتجّار السوق». ويورد أمثلة أخرى على المعالم الخربة، مثل مسجد الصبّاغين قرب الجسر الجديد، ومدرسة الشيخ العطّار التي يقول إنها مبنى مهمل لا يطرقه أحد.

وفي سرده لأخبار المعالم من الآثار التي يذكرها، والمعالم التي دبّ فيها الإهمال والخراب، يبدو شاتليه كأنه يخبر عن مدينة في طريق الاضمحلال، ويكتب كأنه آخر زائر سيرى تلك المسرعة إلى الزوال، وخصوصاً حين يصف المباني المهملة والخَرِبة، ولعلّ أهمية الدراسة تكمن في أنها أعدّت في وقت لم تكن أعمال الهدم قد امتدّت إلى معالم بارزة، كما حدث في العقود التالية لزيارته. فسجّل بذلك شهادة وقدّم رسوماً وصوراً التقطها بآلته لآثار وأسواق اختفت إلى الأبد.

واذا كان المستشرق ينظر إلى هذه الآثار باعتبارها علامات من الماضي تقاوم مرور الزمن، ويتنبأ بأن المدنية التي بدأت بالخروج من نطاقها التقليدي القديم، سيهجرها أهلها في غضون سنوات قليلة، ممّا يؤدّي إلى تركهم لأسواقها وإهمالهم لمبانيها وهجرهم الاعتناء بها، فإن الشيخ المسيري الذي كان في تاريخه للمدينة قد تطرّق لذكر المعالم نفسها، فإنه اكتفى بذكر العلماء الذين اعتنوا بها فكانوا أئمّتها وخطباءها ومدرّسيها، وهي بالنسبة إليه علامات على التاريخ الذي يعيش في الحاضر، والشهادة على هويتها.

دكّان الكتب القديمة

I

اعتدت زيارة مكتبة يوسف الورّاق كلما شعرتُ بملل من متابعة القراءة في مكتبة الجمعية أو قاعة المحفوظات. كُنتُ أجدها مناسبة للتجوّل في السوق إذ يمكنني أن أصل إلى مكتبة الورّاق عن طريق سوق الكندرجية وصولاً إلى العقّادين عبر الصاغة، أو عن طريق الجامع الكبير ثم العطّارين. ومكتبة الورّاق نفسها تقوم في سوق عُرف في ما مضى باسم سوق الكُتب حيث أنشئ عدد من المكتبات، عُرف كل منها باسم صاحبها، كالشريف والحسيني والشيخ الحفّار، وقد أقام أحمد الورّاق، والد يوسف، مكتبته قرب المدرسة الركنية التي أعيد ترميمها منذ سنوات وصارت تعرف باسم مسجد النور. وقد تغيّرت أشياء كثيرة في السوق منذ تأسيسها قبل عقود عديدة، ولكن المكتبة لم تتغيّر، وهي في حالتها الراهنة تشبه ما كانت عليه في أوّل تأسيسها عام ١٩١٠ إثر زيارة الشيخ رشيد رضا للمدينة، وقد طلب منه بعض الشباب إرسال مجلّة «المنار»، فصارت ترسل إلى دكان أحمد الورّاق الذي تحوّل تدريجياً إلى

مكتبة تبيع المجلاّت والكتب حتى صارت أشهر مكتبات المدينة.

ولا شيء يدلّ على أن دكان الورّاق متخصّص ببيع الكتب، فكلّ الدكاكين تتشابه في السوق، ولم يُدخل الورّاق الابن أي تجديد على مكتبته، كالذي عرفته بعض الدكاكين الأخرى في السوق. بالإضافة إلى أن مدخل المكتبة لا يتجاوز عرضه أكثر من مترين، يفصله عن الرصيف حاجز خشبي، لكنه يفضي إلى قاعتين واسعتين متداخلتين، لا يلاحظهما عابر السوق، وقد امتلأت بالرفوف والكتب الكثيرة والغبار المتراكم.

كان أحمد الورّاق، في الأصل، بائعاً للورق والدفاتر المدرسية يستوردها عبر التجّار من الشام واسطنبول، وتحوّل تدريجياً إلى بيع المجلاّت. وهو أوّل من قام بذلك، فقبل أن يفعل، كانت الصحف والمجلاّت توزّع ولا تباع في مكان مخصّص.

وحين كانت أعداد مجلّة «المنار» تأتيه من مصر، كان يعتبر نفسه داعية وليس بائعاً أو تاجراً، ولكن الطلب على المجلاّت والكتب دفعه إلى توسيع مهنته، فسافر إلى القاهرة مرّتين في عقد الثلاثينات، وطالما كان يسافر إلى دمشق حيث صارت له زمالة مع بعض أصحاب المطابع، كما تعرّف إلى عدد من كتّاب الصحافة في ذلك الزمن.

وكانت مكتبة الورّاق في عشرينات وثلاثينات القرن، الوحيدة التي يجد فيها الشباب من القرّاء مجلاّت مثل «الرسالة» لأحمد أمين، و«الهلال»، و«المقتطف». فكانت مقالات الإمام رضا ولطفي السيّد وطه حسين تحدث نقاشاً بين الشباب تتردّد أصداؤه في أرجاء المدينة. وحين احتدم

النقاش حول الخلافة بعد إلغائها في اسطنبول، وصلت الكتب والمجلاّت التي عرضت الآراء المتضاربة، وقد وصلت إلى المكتبة نسخة وحيدة من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، كانت تؤجّر للقرّاء، لكن الجدالات حول الخلافة سرعان ما طويت. وحين نشر الشيخ رضا نداءه إلى الجنس اللطيف، احتدم النقاش حول دور المرأة، وكانت آراء قاسم أمين قد طرقت بوّابات المدينة من قبل.

ووصلت إلى المكتبة مجلاّت من دمشق، مثل «المقتبس» لمحمد كرد علي، في سنواتها الأخيرة. وقد تعرّف الورّاق إلى عدد من حملة الأقلام البارزين في دمشق، كالشيخ القاسمي والشيخ الخطيب. وقد تأثّر صاحب المكتبة بالمقالات التي كان يقرأها في المجلاّت، فانخرط في التيّار الإصلاحي واعتبر نفسه من تلامذة الإمام رضا وشكيب أرسلان. وقد أقام حفل تأبين حين بلغه خبر وفاة الإمام، وقد قام عام ١٩٣٦ بإنشاء مجلّة شهرية أعطيت اسم «التربية الإصلاحية» وأسند تحريرها إلى اثنين من العلماء الشباب آنذاك، الشيخ عبد الرحمن التقي وقاسم البصري، واستمرّت لبضع سنوات.

وبالرغم من أن أحمد الورّاق قد التزم التيّار الإصلاحي، إلا أن مكتبته كانت تتّسع للمجلاّت التي يصدرها أنصار التيّارات الليبرالية التي تأتيه من مصر، مثل «الطليعة»، و«العصور» التي تنشر مقالات اسماعيل مظهر الجريئة، و«المجلّة الجديدة» التي عرّفت القرّاء بسلامة موسى وأفكاره في التطوّر والعلم.

كان يوسف الورّاق، حسبما قال لي، يداوم في المكتبة

أيام العطل، منذ أواسط الثلاثينات، وكان آنذاك صبياً صغيراً، يلاحظ الزبائن، بينهم الطلاّب وبينهم كبار السنّ، ومنهم رجال الدين وأناس من أوساط مختلفة. وكان الذين يأتون لشراء كتاب أو مجلّة يمضون وقتاً في تصفّح المجلاّت وتقليب الكتب. فيقضي الواحد منهم بعضاً من النهار قبل أن يحمل ما اشتراه. وقال لي يوسف الورّاق حين سألته عن عدد القرّاء آنذاك: «كانت القراءة تسري في دماء الجيل الشاب، فيقضون أوقاتهم في النقاشات، وترتفع أصواتهم داخل المكتبة فيدعوهم والدي إلى الهدوء، أو يمضون إلى أمكنة أخرى لمتابعة أحاديثهم».

وقد جعل أحمد الورّاق الوالد، من إحدى القاعات الداخلية مكتباً للمجلّة التي أصدرها. وكان يأتي اليها الشيخ عبد الرحمن التقي فيجتمع مع عدد من الأشخاص كل يوم بعد العصر، أما اجتماعات المجلّة فكانت تعقد بعد صلاة يوم الجمعة. وقد ازداد أنصار الشيخ كما ازداد عدد قرّاء «التربية الإصلاحية». وكان بعض المتحمّسين قد وصلتهم أخبار الدعوة التي يقوم بها حسن البنّا في مصر، فأرادوا أن ينشئوا في المدينة حركة مماثلة. ولكن الشيخ التقي قال كلمته الشهيرة التي عُرفت آنذاك: «الاصلاح دعوة وليس حزبية»، فتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. فاستمرّ إصدار مجلّة «التربية الإصلاحية» حتى أرهق أحمد الورّاق من دفع نفقاتها فتوقّفت بعد سبع سنوات من الصدور، وقبل وفاته بسنتين.

كان للمجلاّت عصرها، ولم يبدأ بالأفول حتى بزغ زمن الكتاب: كتب كثيرة كانت تأتي إلى المكتبة، حين أخذت شهرة طه حسين والعقّاد والمازني تحلّ مكان الشهرة التي

كانت للإصلاحيين من قبل. وكانت الكتب تصل من مصر، كما تصل من بيروت التي أخذت مطابعها تدفع إلى السوق بكتب صغيرة وأنيقة تشتمل على الوجدانيّات والشعر والدراسات التاريخية. وأخبرني يوسف الورّاق أن عصر الكتاب قد امتدّ منذ أواسط الأربعينات حتى أواخر الخمسينات. في ذلك الوقت تعدّدت المكتبات في المدينة وافتتح بعضها في الساحة الحديثة وأطرافها، فأخذ عدد زبائنه يتضاءل ومع ذلك فإن عملها لم يتوقّف إذ تحوّلت إلى مهمّة أخرى.

تسلّم يوسف الورّاق، شؤون المكتبة منذ منتصف الأربعينات، بعد وفاة والده. فاهتمّ بالكتب الأدبية والتاريخية ودواوين الشعر التي صارت غاية الطلاّب في ذلك الوقت. وكان أغلب زبائنه من طلاّب المعهد العربي الذين يأتون بعد انصرافهم من الصفوف. وحين سألته عن كامل محرّم، قال: «إنه أتى مرّات قليلة ليسأل عن بعض الكتب. ولكنه كان على خلاف مع الشيخ التقي بسبب تضارب مذهبيهما، فاعتبر أن مكتبتنا تمثّل تيّاراً غير الذي يعمل من أجله. ومع ذلك فإن طلاّبه كانوا من زبائن مكتبتنا».

عرفت سيرة القراءة والكتاب والمجلاّت، من خلال ما أخبرني به يوسف الورّاق. فهو يقسم تاريخ المكتبة إلى ثلاث مراحل: الأولى تشمل العشرينات والثلاثينات، وكانت المجلاّت سيّدة القراءة، يتهافت الطلاّب والشباب على طلبها ويتداولونها حتى أن العدد الواحد يقرأه العشرات. والمرحلة الثانية تشمل الأربعينات والخمسينات حيث أصبح الكتاب هو الذي يتهافت القرّاء على اقتنائه،

أما المرحلة الثالثة فهي التي شهدت التخلّي عن المقتنيات من الكتب والمجلاّت القديمة وقد بدأت مع آخر الخمسينات وأول الستّينات. ومنذ ذلك الحين تخصّص يوسف ببيع الكتب القديمة.

والكتب القديمة التي تخصّص ببيعها ليست إلاّ تلك التي خرجت للمرّة الأولى من المكتبة، فعاد الأبناء بعد عشرين أو ثلاثين سنة ليبيعوا ما كان آباؤهم قد اقتنوه منها. فالمجلاّت والكتب التي كانت تثير النقاشات في العشرينات والعقدين التاليين، صارت قديمة في أواخر الخمسينات. فيأتي من يبيعها لقاء شراء كتب جديدة، وبعد ذلك صار يوسف الورّاق يشتري كل ما يُعرض عليه دون تفحّص، فكان من بين ما يشتريه دفاتر الحسابات التجارية والكتب المدرسية التي انقضى عهدها، وكل ما كتب على ورق. فتكدّست المجلاّت والكتب من كل صنف في رفوف مكتبته التي تكاثرت في القاعتين الداخليتين. وقد شرح لي يوسف الورّاق الأمر فقال: «لقد بدأ التخلّي عن الكتب القديمة حين تفشّت موجة انتقال الأهالي من الأحياء القديمة للسكن في الأحياء الحديثة، وكانوا يحتارون بأمر صناديق الكتب المخبّأة في علّيات بيوتهم، فيأتون إليّ ليعرضوها، فلا أردّ خائباً. وكان الكثير منهم يخجلون من بيع الكتب فيعطونها لأولادهم الصغار الذين لا يجدون غيري يقبل بشراءها، فتراكمت عندي أجيال من الكتب والمخطوطات العائدة للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والمطبوعات التي خرجت من المطابع الأولى في القاهرة وبيروت واسطنبول وتعود إلى نهايات القرن التاسع عشر، وتلك التي خرجت من مطابع الجيل الثاني في العقود الأولى من القرن».

وكان يوسف الورّاق يصنّف ما يشتريه، فيضع المخطوطات على حدة والكتب التي طبعت في بولاق أو اسطنبول على حدة، ويترك ما تبقّى فوق الرفوف التي كانت تتكاثر مع مرور السنوات.

ومنذ أوائل الستّينات اقتصر عمله على بيع الكتب القديمة وشرائها، فترك شأن الكتب الجديدة للمكتبات التي أسّست في الساحة العامّة، وقال لي إنه تخلّى عن بيع الكتب الجديدة منذ أن أدخلوا الألوان على غلافاتها، فصاروا يعتنون بالمظاهر ويهملون المضامين. وهو يعتبر نفسه أميناً للجيل الأول من المطابع التي يسمّيها حجرية، حين كانت الطباعة فنّاً حسب تعبيره.

ومع تبدّل وظيفة مكتبته تبدّل زبائنه، فصاروا من هواة جمع الكتب والتجّار الذين يشترون منه المخطوطات ويبيعونها في مدن أخرى وبعض الطلبة الباحثين عن مجلّة أو كتاب قديم، وبعض العابرين الذين يأتون مرّة أو مرّتين ولا يعودون. حين جئت إلى مكتبته، كنتُ قد تأخّرتُ كثيراً بالوصول، إذ كان يجدر بي أن أحضر قبل عشر سنوات أو عشرين سنة لأجد شيئاً مفيداً ونافعاً. فقد أفرغت من كل ما له قيمة ولم يبقَ فيها سوى ركام من المجلاّت والكتب التي لا تلفت انتباه أحد. وحين سألته عن كتب أو مخطوطات تتعلّق بتاريخ المدينة، قال لي: «تاريخ المدينة لم يثر اهتمام أحد من علمائها القدماء، وقلّة من أبناء الجيل السابق اهتمّوا بأمره». وأخبرني أنه احتفظ بكل ما وقع بين يده من كتب خطّها أو ألّفها علماء وكتّاب من أبناء المدينة، وأحاطها بشيء من العناية.

II

كانت المكتبة المصغّرة التي جمعها يوسف الورّاق، قد قسّمت بدورها إلى مجموعتين، ضمّت الأولى مخطوطات كتبت باليد، وأغلبها رسائل فقهية ومؤلّفات صوفية، وبينها رسالة في علم الحديث، وأخرى في علم التاريخ هي أقرب إلى أن تكون تلخيصاً لكتاب السخاوي المعروف باسم «الإعلان بالتوبيخ». وعثرت بينها على مخطوط في أعلام المدينة، فرغ مؤلّفه الشيخ وهيب الكناني من تأليفه عام ١٢٨٣ هجرية. لكن أهمّ المخطوطات كانت مذكّرات لموظّف في إدارة المدينة كتبها في أواخر حياته دون أن يذكر اسمه، وتشمل فصولاً عن حملة ابراهيم باشا وعودة العثمانيين، كما ضمّت وفيات الأعيان في أواسط القرن الماضي. أما الكتب المطبوعة لمؤلّفين من أبناء المدينة، فقد وجدت فيها بعض المؤلّفات في القومية. والأمّة والآداب العصرية والتربية الصحيحة. وقلت في نفسي إن القومية والآداب والتربية تنتمي حقّاً إلى عصر الطباعة. كما ضمّت الكتب المطبوعة عدداً من المحاولات الشعرية التي لم يكتب لها النجاح، وبينها كتاب عن آثار المدينة مع ملخّصات عن تاريخ كل أثر. وبعض هذه الكتب كنت صادفته في مكتبة الجمعية، والمجموعة المخطوطة أو المطبوعة التي احتفظ بها يوسف الورّاق، لم تكن أكثر من عيّنة تعبّر عن نوع التأليف في المدينة واهتمامات علمائها ومتنوّريها خلال قرون ثلاثة من الزمن ولا تشكّل سوى جزء من إنتاج أبناء المدينة في الكتابة والتأليف.

اما مجلّة التربية الإصلاحية التي موّل إصدارها أحمد الورّاق وحرّرها الشيخ التقي وقاسم البصري، فقد أعانتني

على فهم أحوال المدينة في فترة من تاريخها قبل بضعة عقود من الزمن. صدرت المجلة عام ١٣٥٥ هجرية/ ١٩٣٦ ميلادية. واستمرّت لسبع سنوات، وقد حمل عددها الأخير رقم ٦٧. واشتمل كل عدد على ١٦ صفحة، فكانت أقرب إلى نشرة منها إلى مجلّة. وأغلب مقالاتها غير موقّعة، لكن العديدين من أتباع التيّار الإصلاحي أنذاك شاركوا في تحريرها، بالإضافة إلى الشيخين التقي والبصري. وقد صادفت أسماء عبد العزيز الخطيب الذي صار مفتّشاً في المدارس، ومحمود الحفّار الذي انصرف في ما بعد إلى أعمال التجارة، وعبد العزيز نجدت الذي صار داعية إرشاد.

كانت المجلّة قلّما اعتنت بالأخبار والوقائع، ولكنها جنّدت نفسها لنقد الأحوال المعاصرة، فكانت تتصدّى للتخلّي عن عادات الأجداد والتشبّه بالغرباء والأجانب، وترصد الأمثلة على ذلك. لكنها دعت في الوقت نفسه إلى أخذ ما يفيدنا من أوروبا دون الإضرار بعقيدتنا. وتقيّدت بمواقف محافظة تجاه تعليم المرأة. ولم تتطرّق إلى المسائل التي كانت تشغل التيّارات الأخرى، فالتزمت شعار الدعوة والإصلاح. وجعلت موضوعها الرئيسي التربية، فقدّمت على امتداد أعدادها صوراً عن أحوال التربية في المدارس، وفتحت صفحة لاستقبال مقالات الطلاّب، ووضعت خطّاً فاصلاً بين نوعين من المدارس: الإرسالية والأهلية، وحذّرت من التراخي في الابتعاد عن الأصول، كما حذّرت من السموم التي تبثّها المعاهد المشبوهة.

ظننت أن أعداد مجلّة «التربية الإصلاحية»، لن تفيدني بشيء يتّصل بموضوعي الذي أجمع مادّته الأولى، لكنني

بدّلت رأيي تدريجياً، إذ إن المجلّة عكست بصمت حجم وآراء تيّار ازدهر في تلك الفترة، وكانت العلامة البارزة على ذلك الجيل من الإصلاحيين الذين أختفوا في غمرة التيّارات السياسية والأحداث المتسارعة. واكتشفت من خلالها جانباً مجهولاً من نشاطات هذا التيّار في المساجد والمدارس، فكانوا لا يفوّتون مناسبة إلاّ ويحيونها بإلقاء الخطب والمحاضرات التي تلقى، والاحتفالات التي تقام في الأعياد، واستطعت، من خلال مطالعتي لأعداد المجلّة، أن أكتشف أيضاً مفهوماً خاصاً للمدينة، باعتبارها وحدة متكاملة في أذهان كتّابها، وعادة ما وُصفت بالمصر الجامع، والثغر المجاهد، مستعيرين العبارات من فقهاء العصور السالفة. وكانت المدينة تأخذ ملامح مختلفة في أعداد المجلّة، فهي ليست شوارع وأزقّة وأحياء وأسواق ولكنها المكان الذي يعبّر عن الوحدة ضد الشقاق والانقسام.

السكن في نزل الأمراء

I

حضرت إلى قاعة المكتبة في مبنى الجمعية صباح يوم الاثنين، آخر شهر تموز. كان الموظف جالساً يدخّن ويتطلّع في فراغ القاعة الواسعة. وكنت أنوي مراجعة بعض الوثائق القنصلية الفرنسية العائدة للقرن التاسع عشر، لكنّ الوقائع كانت تشدّني إلى حاضر المدينة أكثر فأكثر. عندما اقتربت من الموظّف الجالس خلف طاولته، لاحظت أنه مستمرّ في شروده على غير عادته. وحين ألقيت عليه التحية، نظر إليّ وقال: «لقد مات الأستاذ».

أصبت بدهشة وشعرت كأني أفقد صديقاً قديماً بالرغم من أنني لم ألتق به سوى مرّة واحدة، ولم يخطر على بالي أنه سيرحل بهذه السرعة. وفكّرت أن موته ليس إلاّ مفارقة من جملة المفارقات التي صادفتها وسأصادفها خلال ذلك الصيف.

كان الموظّف أحد الأشخاص الذين عاشوا في ظلّ كامل محرّم، فقد رعاه صغيراً وأوجد له هذا العمل، مثلما رعى الكثيرين وأوجد لهم أعمالاً وساعدهم في شؤون حياتهم.

وأحسست أن غياب كامل محرّم يعني بطريقة ما، نهاية مرحلة استغرقت ثلاثة أرباع قرن من الزمن، وختام عصر من عمر المدينة، وأنّ صدعاً لا بدّ أن يصيب جمعيته. وقلت في نفسي: كم من الأفكار والآمال طويت هذا الصباح.

وصلتُ باكراً، وكان عدد من الأشخاص قد سبقوني إلى باحة المسجد. ولم يمضِ وقت طويل حتى امتلأت الباحة بعدد كبير من الناس. وجهاء وعامّة، زملاء قدامى وأصدقاء وطلاّب من أجيال مختلفة. وحسبتُ أنّ المدينة ستأتي برمّتها للمشاركة في التشييع، جرياً على عادة أهلها في تأدية هذا الطقس الذي يعتبرونه واجباً. ومن بين الكثيرين الذين أتوا عند الظهيرة لم أكن أعرف سوى وجوه قليلة. وقفت إزاء الجدار أراقب الحشد، ولمحت فجأةً الشيخ ياسين الظاهري، فتوجّهت صوبه، وألقيت عليه التحية، فتطلّع نحوي وسألني: «من أنت؟» فعرّفته بنفسي، فلم يجب. وفهمت أنّه لم يتذكّرني، فقلت له إنني أرغب بلقائه، فقال بدون أن يفكّر: «تجدني في نزل الأمراء، ولكن لا تنسَ أن تحضر معك علبتين من التنباك، وإيّاك أن تحضر نوعاً رديئاً!» ثم تابع طريقه وغاب في الحشد.

استعجلت لقائي بياسين الظاهري، كأنني كنت أخشى أن يداهمه الموت فجأة. توجّهت في اليوم التالي إلى نزل الأمراء الذي كان في ما مضى فندقاً شهد أيام عزّ المدينة وذلّها، منذ أن بناه أحد المتموّلين في بداية القرن. فكان محطّة الولاة والأمراء القادمين من عاصمة الدولة أو سواها. وفي زمن الانتداب صار، لفترة قصيرة، مقرّاً لحاكم المدينة الفرنسي، قبل أن يعاود سيرته كفندق ومطعم

للطبقة العليا. ولم يبدأ أفوله البطيء إلا مع بداية الخمسينات، فانزوى وتحوّل إلى نزل للوافدين من الأماكن البعيدة كمأوى رخيص. وكان ياسين الظاهري يشغل فيه غرفة منذ عدّة سنوات.

لم يكن ياسين الظاهري رجل دين، ولكنه حمل لقب شيخ منذ أن رحل إلى مصر بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ليدرس في الأزهر، فمكث هناك خمس سنوات وعاد إلى المدينة وقد خلع جبّة العلماء، بعد أن تعلّم الصحافة ومارسها في جرائد القاهرة. كان عند مغادرته المدينة يعد نفسه بلقاء الإمام رشيد رضا، الذي حمّله رفاقه وأساتذته تحيّاتهم لينقلها للإمام صاحب المنار. ولكنّ الشيخ ياسين الذي لم يمكث في أروقة الأزهر سوى أشهر قليلة، نسي اللقاء الذي وعد نفسه به، بعد أن جذبته أفكار لطفي السيّد وطه حسين إلى عالم الثقافة التي لم تكن أصداؤها قد وصلت إلى مدينته، وتأثّر بمقالات سلامة موسى المبكرة حول العلم والتطوّر، فغادر الأزهر ولم يعد اليه بعد أن تدبّر لنفسه عملاً في إحدى صحف القاهرة كمصحّح، ثم انتقل إلى كتابة المقالات فنشر بعض الكتابات الأولى، فاكتسب خبرة في صنعة الصحافة. وعند عودته كان مليئاً بالحماس لأفكاره الجديدة التي جاهر بها فاتهم بالإلحاد والشيوعية، فلم يزده ذلك إلاّ اصراراً على التمسّك بما آمن به واعتبره الفكر الجديد الذي سيغيّر البشرية.

لم يكن ياسين الظاهري شيوعياً، بل أن الشيوعيين تنصّلوا منه واتّهموه بأنه فوضوي وانتهازيّ. ولكنّ أشدّ التهم انتشاراً كانت اتّهامه بالماسونية. كانت أفكاره مزيجاً من الأفكار الاشتراكية والتطورية المبسطة. وقد عبّر عن

معتقده في مقالة كتبها عام ١٩٣٤ في صحيفة «الرأي الجديد» قبل أن تكون له جريدته الخاصّة به. وأصبحت تلك المقالة علامة فارقة في تاريخ المدينة، تحدّث فيها عن نشأة الإنسان وتطوّره، وارتقاء المجتمعات والعقائد، وكان يلخّص فيها أفكار شبلي الشمّيل في الكتاب الذي حمله معه من القاهرة. فأثارت نقمة عارمة وردّ عليه الشيخ البدري في مجلة «الصراط» بمقالة اعتبر فيها أن ياسين الظاهري قد خرج بما ادّعاه عن عقيدة الملّة، وأنه بأقواله، يريد بعث طرق المتكلّمين، مستشهداً بإجماع السلف على تحريم الكلام.

إلا أن شهرته في المدينة تعود إلى مقالاته ضدّ الانتداب. وتصدّره المظاهرات وتعرّضه للسجن، كما تعود شهرته إلى الجرأة التي تمتّع بها حتى التهوّر، فانقسمت الآراء حوله. وسعى إلى أن تكون له جريدته الخاصّة به، فكان له ما أراد وحصل على امتياز اصدارها عام ١٩٣٩، فنشر أول عدد من جريدة «القول الصريح» في أواخر العام واستمرّت حتى نهاية عام ١٩٤١، وقد أوقفت مرّات عديدة حتى عُطّلت بسبب اتّهامه بالتعاطف مع النازية، وهو الأمر الذي أنكره في ما بعد. فسجن لخمسة عشر شهراً، وخرج بعدها دون أن تؤثّر فترة السجن في حماسه وإصراره وعاود اتّصاله بالحاج أمين الحسيني، وكان قد عرفه قبل إصدار صحيفته، وقد قيل آنذاك بأن الحاج أمين هو الذي ساعده في إصدارها.

وصلاته الواسعة التي كوّنها عدّلت من أفكاره، فصار أقرب إلى القضايا المشرقية العربية، من الأفكار التي سبق أن كوّنها في مصر في أول الثلاثينات. وقد انخرط في

الشؤون المحلّية بعد خروج الفرنسيين، فسعى من جديد إلى إصدار صحيفته، فلم يفلح إلا عام ١٩٤٦، لكن الصحيفة لم تعمّر سوى بضعة أشهر. فصار يكتب المقالات في «القبس» و«النداء» متابعاً نشاطاته السياسية. حتى تمكّن، للمرة الأخيرة، من إصدار جريدة عام ١٩٥٤ وقد عاشت عدّة سنوات حتى اضطرّ أن يقفلها بسبب تراكم الديون. فدبّر له كامل محرّم وظيفة إدارية في المعهد العلمي، ودخل بعدها في شيخوخة طويلة. ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً. حتى ظنّ الكثيرون أنه مات أو اختفى.

كان ياسين الظاهري صوتاً فريداً في المدينة، وشخصية مثيرة للجدل والعداء. كان يجابه خصومه وحيداً غير عابئ بالتبعات. وقد بدا أحياناً سابقاً لزمنه، وبدا، في أوقات أخرى، أن التحوّلات تسبقه. كان صديقاً لكامل محرّم بالرغم من اختلاف المصادر التي استقيا منها أفكارهما، وبالرغم من مزاجيهما المختلفين. وقد اختلفا لفترات وعادا الى صداقتهما الطويلة. كان الأستاذ يحيط نفسه بالأصدقاء والحلفاء والأتباع، ويحافظ على أصدقائه وحلفائه، أما ياسين الظاهري فكان يقلّب الأصدقاء كما يقلّب المواقف، غير عابئ بأن يكون جزءاً من تيّار، وغير مهتمّ بتكوين الحلفاء والأتباع. ولكنّ الأسباب الفعلية التي باعدت، ولو لحين، بين كامل محرّم وياسين الظاهري، كانت اختلافهما حول السياسة المحلّية، والسبل التي يسلكها كلّ منهما إزاءها.

عاش ياسين الظاهري وحيداً، ولم يترك أبناءً، ولا من يتابع أفكاره وآراءه. وبدا في أوقات كثيرة، قليل الرصانة، بسبب تبديله الحلفاء وانقلابه على رفاقه. ويقول خصومه

إنه بدّد ثروةً على النساء، فكان يصرف ما يجنيه في مرابع المدينة. ويذكرون أنه أنفق ثروةً على إسپرانس التي كانت فتاة أولى في مرقص «ليه تروا كات». أما هو فيقول إن النافذين الذين خافوا منه دائماً، أوقعوه في المشاكل وتمكّنوا منه وأسكتوه.

بدا لي «نزل الأمراء» الذي حافظ على اسمه طوال ثمانين سنة، مبنىً متداعياً يقاوم من أجل البقاء، خصوصاً أن المباني التي تجايله والتي كانت تقوم إلى جانبه قد أزيلت وأقيمت في أمكنتها بنايات مرتفعة مخصّصة لمكاتب الأعمال والشركات وعيادات الأطباء. حين دخلت الباب المرتفع وصرتُ في البهو الداخلي، حسبتُ النزل مهجوراً، لولا أن سمعت صوتاً يسألني: «ماذا تريد؟»، فقلت: «أريد أن ألتقي الشيخ ياسين». فعاد الرجل الجالس خلف الطاولة عند زاوية البهو ليسألني: «هل انت قريبه؟»، فأجبتُ بالنفي. فهزّ رأسه وقال: «سينزل بعد قليل».

بقيتُ واقفاً أتأمّل السقف المرتفع والمزخرف، وكان أشدّ ما يلفت الانتباه في هذا المكان الذي تسكنه الكآبة، الواجهة المزخرفة بقطع الزجاج الأحمر والأزرق، والتي صمدت بالرغم من تقلّبات الزمن.

نزل الشيخ من الطابق الأول حيث غرفته، وكان يتطلّع باحثاً عن الشخص الذي يسأل عنه، فتقدّمت صوبه وسلّمته كيساً، وقلت له ممازحاً: «لم أنس التنباك». فأخذ الكيس وتفحّص ما بداخله بدون أن يغيّر تعابير وجهه، ثم سلّمه إلى الرجل الوحيد الجالس خلف الطاولة، وقال: «احفظ لي هذا، سيلزمني في المساء».

قال لي بعد أن جلسنا: «لقد أصبح هذا النزل بيتي»،

وبشيء من السخرية تابع: «إنني أسكن في نفس الغرفة التي نام فيها المندوب السامي حين زار المدينة عام ١٩٣٧»، وتنبّه إلى المسافة التي تفصلنا عن ذلك التاريخ، فأضاف: «خمسون سنة مرّت كلمح البصر».

صمتَ كأنّه يتذكّر ثم قال: «عشتُ جلّ سنوات عمري في هذه الناحية من المدينة، كانت جريدتي في المبنى الذي أقيم مكانه مكتب البريد على بعد ثلاث عمارات، وما زلت أمضي أوقاتي في مقهى الزهراء، كعادتي منذ أيام الشباب، وكما كانت عادة كامل محرّم، رحمه الله». وتطلّع نحوي وقال: «لم أكن أتوقّع موته، كان يصغرني بثلاث سنوات، لكنّ المرض ثقل عليه في المدة الأخيرة. كنا صديقين بالرغم من اختلافنا حول بعض المسائل».

وسألته: «فيمَ كان اختلافكما؟»، فتابع كأنه لم يسمع سؤالي: «حين عدت من مصر في أول الثلاثينات كان كامل محرّم عضواً في المنتدى العربي الذي أسّسه مع مجموعة من الطلاّب زملائه في المعهد العلمي مستعيداً بذلك تجربة المنتدى العربي الذي كان والده عضواً فيه، وكان في أول عهده بالتدريس حين صرت ألتقي به في مقهى الزهراء فنتحدّث ونختلف. كان عروبياً متحمّساً، أما أنا فكنت متأثّراً بالأفكار الاشتراكية، ولكننا وضعنا نقاشاتنا جانباً ابتداء من سنة ١٩٣٦ حين عقدنا الاجتماع الموسّع الذي سبق الإضراب الكبير، واشتركنا بعد ذلك في نشاطات مختلفة. وحين أصدرت صحيفتي نشرت له مقالات كان يلخّص فيها آراء ساطع الحصري، ويوقّعها باسم مستعار».

سكت للحظات كأنه يفتّش عن الكلمات، ثم تابع: «لقد كان نشيطاً في عمله، وقام بجهد لم يسبقه اليه أحد،

فقد أسّس جمعية الثقافة، فسار خلفه طلاّب المعهد العلمي وطلاّب المدارس الأخرى، وصار ممثّل الشباب المتعلّم، وفي الأربعينات كان يحرّك الشباب فتتحرّك المدينة، حينها بدأوا يخافون منه، فحاولوا إخافته لكنه لم يخف أو يتراجع، ولكن عرفوا أن يحاصروه ويهدّدوه ولفّقوا حوله التّهم، ونبشوا تاريخه وقالوا إنه ليس من المدينة، فلا يمكن أن ينطق باسمها. ومنعوه من أن يصبح مديراً للمعهد».

سألته: «من هم؟»، فتابع كأنه لم يسمعني: «لقد خافوا منه، وأرعبتهم جمعيته، وعشرات الشباب المنتسبين اليها فحاصروه حتى رضخ لهم». وعدت أسأله: «من هم؟» فتطلّع اليّ وكأنّ صدره قد ضاق، أو كأنني قطعت عليه ذكرياته، وقال: «تسألني من هم، إنهم أنفسهم في كلّ وقت، كانوا يدّعون الوطنية في النهار، ويسهرون مع عملاء الانتداب في الليل. كان عماد سريّ الدين، ابن عبّاس الكبير، يجاهر بصداقته للفرنسيين فلم نكن نخشاه. أما سعيد المارديني، تابع نجيب بيك البكري، فقد هدّدنا، أنا وكامل محرّم وخليل رستم، وقال لنا: ان نجيب بك لم يعد يتحمّل حركاتنا. وكان البكري يتصرّف كأنه السيد بعد خروج الفرنسيين، فلم آبه له، وشدّدت النكير عليه في صحيفتي. أما كامل محرم فقد أخطأ الحسابات والتحالفات، فجعل تلميذه مصطفى عضواً في جمعيته ليكسب ودّ والده سعد الدين الأشرفي، وحين حذّرته، قال لي إنهم بيت وطني عريق. ولم يكن يدرك أن الأشرفيين من طينة البكريين».

قلت له: «ولكن كامل محرّم لم يتخلّ عن مبادئه واستمرّ على نهجه في جمعيته!» قال: «حين حاصرني

البكري ولفّق حولي التّهم، وكان الأشرفي يعاونه من وراء الستار، لم يفعل كامل محرّم شيئاً، فعذرته لأنه كان يصدّق أن الأشرفي بريء». وتابع: «صحيح أن الأستاذ بقي قوياً في الخمسينات حين كانت الجمعية في عزّ اتساعها، ولكنها كانت من حيث لا يدري ستاراً لمصطفى الأشرفي الذي ورث الزعامة عن والده، وحين بدأت الجمعية تدخل طور الضعف، أهملها الأشرفي الذي توفّي في غمرة انشغاله بأعماله وزعامته».

كان الكلام قد أجهده، فأخذ بالسعال الذي زاد في إرهاقه، وحين هدأ، تناول كوباً من الماء. ونظر في أرجاء القاعة المرتفعة الجدران كأنه يتذكّر، وقال: «رحم الله الأستاذ، فقد كان سليم النوايا، ظنّ أن تلميذه مصطفى الأشرفي مخلص للمبادئ التي لقّنه إيّاها على مقاعد الدراسة، ولم يكن يدرك أنه ابن أبيه، وتزوّج ابنة سريّ الدين ليجمع المجد من أطرافه، الجمعية وشبابها، من جهة، والعائلات القديمة، من جهة أخرى».

وسألته: «وأنت أين كنت في ذلك الوقت؟»

قال: «أنا لم أتغيّر، ولكن هم الذين تغيّروا. وقد اتّهموني أنني لا أحافظ على أصدقائي، ولكنّ الأصدقاء والحلفاء هم الذين كانوا يتساقطون ويتبعون مصالحهم... لقد بقيت وفيّاً للمبادئ التي تعلّمتها في أول شبابي، ولكن المدينة لم تكن لتتحمّل هذه الأفكار فاتّهموني بشتّى التهم، وقالوا إني ملحد، وإني أنفق مالي على النساء... أنا ياسين الظاهري حفيد الشيخ أحمد المدرّس في الظاهرية أشرف منهم ومن آبائهم. هدّدوني وحين لم ينفع التهديد، حاصروني من جميع الجهات فاضطررت أن أوقف

صحيفتي لكنني لم أيأس فعدت بعد سنوات الى إصدار صحيفة أخرى... لكنّ الزمن كان يسير في عكس الاتّجاه الذي أسير فيه، فآثرت التوقّف لعلّ جيلاً جديداً يتابع ما بدأناه».

سألته: «ألا تحتفظ بالصحف التي أصدرتها؟».

غرق في صمت حزين، وحسبت أنه نسي حضوري ولم يسمع سؤالي، ولكنه تطلّع نحوي وقال: «كنتُ أحتفظ بمجموعة من الأعداد التي أصدرتها، أنقلها معي حيث أذهب، وقد اقترح عليّ كامل محرّم شراءها وحفظها في مكتبة الجمعية، حين عرف أني لم أعد أملك شيئاً»، وتابع: «يمكنك أن تبحث عنها هناك».

II

حين سألتُ الموظّف في قاعة المكتبة عن مجموعة جرائد ياسين الظاهري، قال وقد أصابته دهشة: «ما الذي ذكرك بها؟ أنت أول شخص يسأل عنها منذ أن أتى بها الأستاذ قبل عشرين سنة! وحين أحضرها طلب اليّ أن أجلّدها وأحفظها بعيداً عن التداول، وقد وضعتها في العلية منذ ذلك الوقت».

صعد الموظّف السلّم الخشبي، وغاب في العلية. وسمعته يناديني بعد دقائق لأساعده في البحث عنها. كانت أشياء كثيرة قد استقرّت في العلية الضيّقة، كراس غير صالحة للاستخدام، ملفّات باسم الجمعية وأوراق وكتب ونشرات وبينها ثلاثة مجلّدات متفاوتة الأحجام. قال لي: «هذه هي جرائد الظاهري التي تريدها»، فعاونته في رفعها

وإنزالها. ووضعتها، بعد إزالة الغبار عنها، فوق الطاولة الوحيدة في القاعة.

فتحت المجلّد الأول الذي يضمّ أعداد جريدة «القول الصريح» الذي يبتدئ في أيلول عام ١٩٣٩ وقد كتبت افتتاحية العدد الأول تحت عنوان «مبادؤنا»: «نريد لهذه الجريدة أن تكون عهداً جديداً في المدينة، والميدان الذي تتفتّح فيه الأقلام الشابة، بعد أن تكسّرت الأقلام القديمة وظهر عطبها. جريدة من أجل التقدّم الذي ننشده في وطننا، والذي سبقتنا البشرية المتمدنة في انتهاجه وظهر صوابه وجرّبت فوائده». كانت القول الصريح جريدة رأي بالدرجة الأولى، أفسحت في المجال فعلاً للأقلام الجديدة التي مرّت سريعاً في فضاء المدينة. فكان ياسين الظاهري ينشر المقالات التي تصله من الشباب المتعلّم، والتي تنمّ جميعها عن الآمال في المستقبل المنشود، مقالات تعبّر عن الأفكار التي كانت تنتشر في تلك الأيام، مقالات ضدّ الاستعمار وأخرى تدعو إلى الوحدة العربية، وأخرى في مبادئ الدستور وحقوق الانسان، وأخرى في العلم. كتب في أعدادها الأولى حسن المرادي عن الحرية والاستقلال. وكتب فؤاد أحمد، وأظنّه اسماً مستعاراً، مقالات عن حركة التاريخ في سلسلة وصلت إلى سبع حلقات. كما كتب ياسين الظاهري في العدد الثالث والعشرين عن صراع المصالح الدولية، وعثرت على مقالات لكامل محرّم وقّعها باسم الفتى العربي، يتحدّث فيها عن الأمة في حقيقتها التاريخية. كما عثرت على مقالة متأجّجة بالحماس للطالب رأفت السعدي الذي كان أقرب اعضاء الجمعية إلى مؤسّسها، تحت عنوان: «الفداء في سبيل الأمّة».

وعدا عن مقالات الرأي التي يكتبها طلاب ومتعلّمون من أبناء المدينة، فقد شغلت ياسين الظاهري في تلك المدة ثلاث قضايا: الأوضاع الداخلية ويشدّد فيها على نقد أتباع الانتداب ويتّهم الوطنيين بأنهم يعملون من أجل مصالحهم، وكتب كيف أن زعماء الحركة الوطنية حريصون على تعيين أقربائهم في مناصب الإدارة وتنمية ثرواتهم ورعاية مصالحهم. وعن الأوضاع العربية فقد نبّه في أكثر من مقالة إلى خطر الهجرة اليهودية وحيّا في مقالة الحاج أمين الحسيني واهتمّ بشكل خاصّ بأخبار العراق وثورة رشيد عالي الكيلاني، فكتب مادحاً الترياق الذي أتى من العراق. واهتمّ بالأوضاع الدولية وسياسات الأمم. وتعمّد أن يذكر تجارب السوفيات في البناء، فظهر مؤيّداً لحليف المانيا في تلك المدّة من الحرب، بل كتب مقالة قال فيها إن نشوب الحرب العالمية بداية لنهاية الاستعمار وتحرّر الشعوب وقيام نظام جديد عالمي ينهي عهد الإمبراطورية الإنكليزية... وقد عُطّلت الجريدة عند دخول الإنكليز المدينة وسجن ياسين الظاهري الذي قيل آنذاك إنه أعدم في حلب مع من أعدم من أبناء المدينة، لكنه ظهر بعد خمسة عشر شهراً وعاود سيرته.

ضمّ المجلّد الثاني أعداد جريدة «القول الصريح» التي صدرت عام ١٩٤٦، والتي لم تتجاوز الأربعين عدداً، وكان يصبّ غضبه فيها على من أسماهم السادة الجدد أبناء العائلات القديمة الذين ظنّوا أن البلد مزرعة ورثوها عن آبائهم. وكان ينتقد آنذاك نجيب البكري وأعوانه، ويسمّيهم الزبانية، ويتهدّد ويتوعّد. وكتب مقالة بعنوان: «أعمار الطغاة»، قال إن الطبقة القديمة شارفت أيامها على نهايتها،

وإن الجيل الجديد سيغيّر النظام الذي عاشت في ظلّه تلك الطبقة. وقرأت في العدد السادس عشر مقالة كتبها كامل محرّم عن خطر الاستيطان الصهيوني في فلسطين قال فيها إن العرب مدعوون إلى التصدّي لهذا الخطر، ولا يكون ذلك إلا باتّحادهم، كما كتب كامل محرّم مقالة بمناسبة تأسيس جامعة الدول العربية، واعتبرها خطوة على طريق الاتحاد المنشود. ولفتت انتباهي مقالة كتبها خليل رستم، وقد ذكره بين الذين هدّدهم المارديني تابع البكري، يتحدّث فيها عن زيارة الزعيم إلى المدينة وإلقائه الخطب فيها، وشرح فيها آراءه القومية الاجتماعية.

كانت آراء ياسين الظاهري وتحالفاته محيّرة، لكنّ البيان الذي نشره في العدد الثالث من الجريدة، أوضح لي بعض أفكاره. فقد دعا في البيان إلى توحيد الاتّجاهات العقائدية في سبيل إسقاط النظام الإقطاعي، ويقول إن القوميين والشيوعيين والعروبيين، لو وحّدوا جهودهم وتوافقوا على قواسم مشتركة لأمكنهم الإسراع بطيّ صفحة هذا النظام القديم المترنّح. بل أن جريدة «القول الصريح» في أعدادها الصادرة عام ١٩٤٦، بدت كأنها تنطق باسم جبهة القوى الجديدة، وحسبتها أمنية من أمنيات ياسين الظاهري، وفكرت أن أعود إليه لأسأله عن هذه الجبهة ورجالها والتيارات التي ضمّتها.

وبالرغم من ازدحام الأفكار والوقائع في أعداد جريدة «القول الصريح»، فقد عكست، من جهة أخرى، حيويّة المدينة، ودعة العيش فيها، واكتمال العمران في ساحتها التي تضجّ فيها الحركة ويشهد ازدحامها على ازدهارها. بل أن المدينة بدت في بعض المشاهد التي وصفتها الجريدة

وصوّرتها، كأنها مثال لمدينة حديثة تحاكي مدن أوروبا المتوسطية لجهة اختلاط السكّان فيها وتعدّد نشاطاتها. وقد خصّصت الصفحة السابعة قبل الأخيرة من كل عدد لتغطية النشاطات الاجتماعية والثقافية في المنتديات والجمعيات. فبدت المدينة كأنها قطعت شوطاً بعيداً منذ وصف أحوالها المستشرق شاتليه قبل أربعين عاماً سابقة، فها هي جمعية السيدات الأرثوذكسيات الخيرية تقيم حفلتها السنوية لجمع التبرّعات دعماً لمشروع إقامة مشفى في المدينة، وها هي جمعية الشابّات المسلمات تنظّم مهرجاناً لتوزيع الشهادات على المتفوّقات في المدارس. وشهدت المدينة مزيداً من الحفلات الساهرة والمختلطة، مثل اللقاء الساهر الدوري الذي يحييه نادي شركة نفط العراق، والحفل الذي أقامه النادي الأرمني بمناسبة بدء الأسبوع الرياضي، بالإضافة إلى أخبار النادي اليوناني، وأخبار أخرى عن ندوة عقدت في مقرّ نقابة عمال الطباعة، ومحاضرة عن القضية الفلسطينية ألقاها المفكّر عبد الهادي النابلسي في مركز جمعية الثقافة الأهلية.

مدينة عصرية أطلّت من خلال الصفحة السابعة، يزورها الفنانون القادمون من مصر فيحيون الأمسيات في مسارحها، ويقصدها الخطباء لإلقاء محاضراتهم في نواديها، وتعرض دور السينما الأفلام، فتصبح حديث المدينة، وقد بنى المموّل نعيم الصلتي دار سينما ومسرحاً تحاكي ما تعرفه عواصم أوروبا، وهي أكبر صرح عصري في المدينة كما ذكرت الجريدة في خبرها.

إلا أن هذه الحياة العصرية التي أحرزتها المدينة وتفاخرت بها، والتي تتجلّى في ازدهار تجارتها، وأنوار أمسياتها حيث يترافق السادة مع زوجاتهنّ لحضور الحفلات وارتياد

المسارح، كانت تعكرها الصراعات العائلية على تصدّر المدينة، وتناحر الأحزاب، وما يذكره الظاهري عن تزوير الانتخابات والرشوة في الإدارة، لم يكن إلا فاصلاً سبق سنوات غاضبة.

المجلّد الثالث كان أضخم من سابقيه، فقد ضمّ أعداد صحيفة «الأصداء» التي أصدرها ابتداءً من خريف عام ١٩٥٤. ولم أستطع من خلال تصفّحي لأعدادها أن أتلمّس اتّجاه ياسين الظاهري ولا السياسة التي سينتهجها. كان يبدو متردّداً بين تناحرات الحكومات وعداواتها وغير مدرك للتطوّرات التي تعصف بالدول، فانصرف إلى الشؤون الداخلية، معاوداً لهجته اللاذعة في نقد رجال المدينة والقيّمين على مصالحها، فينتقد إجراءات البلدية في رعاية شؤون المدينة ومرافقها العامة، ويهاجم إدارات بعض المدارس التي تهمل شؤون التربية والتعليم. وتأتي ذروة انتقاداته على المسؤولين كافة بعد طوفان النهر، فيشبّه ما أصاب المدينة بنكبة لم تشهدها في ماضيها المعروف والمذكور في كتب التاريخ. لكنّه بعد حين يعود ليمتدح إجراءات الحكومة في عنايتها بشؤون المنكوبين.

إلا أن اهتمام الظاهري بالسياسة يلحّ عليه في كتابة المقالات التي يهاجم فيها حيناً ويناصر حيناً آخر. وبعد أن يسلّط نقده وسهامه إلى العراق الملكي الإنكليزي، فإنه ينصرف إلى نقد سياسة الضباط في مصر وإجراءاتهم في تقييد الصحافة والحريات. ويحيّره شأن هؤلاء الضباط الذين يرى فيهم تكراراً للشيشكلي حيناً ولحسني الزعيم حيناً آخر. وينصرف إلى تحية ثوار الجزائر والتذكير بمحنة شعبها، إلى أن يجد في العدوان على مصر فرصةً للحاق

بالركب، فينقلب نقده للحكم العسكري إلى مديح لأبطال القنال، ويكتب مقالة عن القائد الجديد. لكن الظاهري في كل ذلك يبدو عاجزاً عن اللحاق بالأحداث وفهم التطوّرات، وخوض السباق مع جيل جديد سيتصدّى لوقائع الخمسينات ويقود أحداثها... فبدا الظاهري عاجزاً عن فهم الزمن الجديد الذي يتخطّاه.

فكّرت أن ياسين الظاهري ابن مرحلة ابتدأت في الثلاثينات وانتهت في أوائل الخمسينات. فلم يفلح في إدراك التحوّلات وتبدّل السياسات والأفكار، فكافح من أجل الاستمرار في إصدار صحيفته التي كانت تخسر قرّاءها، فقرّر إقفالها وسرعان ما انطفأ ذكره، فتقاعد في سنّ الخمسين واختفى في هوامش المدينة.



لقاءات شاحبة



I

لقاءات عديدة شاحبة كانت تنتظرني خلال شهر آب الذي تتثاقل خلاله الحركة في شوارع المدينة التي تنهكها رطوبة مناخه الحارّ. وقد انتقلت إليّ العدوى فشعرت بشيء من الكسل الذي صرفني عن زيارة قاعة المحفوظات في المحكمة. صرت أمضي أغلب أوقاتي في المنزل، أراجع عشرات الصفحات التي دوّنت فوقها ملاحظاتي، والفقرات الطويلة التي صرفت ساعات وأيّاماً في نسخها، وأحسست بالملل يتسلّل إلى نفسي، فأرجعت الأمر إلى رطوبة شهر آب التي تصيبني بالوهن في مثل هذا الوقت من كل سنة. ولأول مرة منذ أشهر عدتُ إلى كتب لا تمتّ بصلة إلى تاريخ المدينة، فقلّبت بعضها وقرأت صفحات من بعضها الآخر، وتوقّفت عند فقرات، كما حدث في الليلة الثلاثين من ألف ليلة: «فلما كان بعد أيام قلائل تجهّز أعمامي إلى مصر فبكيت على والدي لأجل الذهاب معهم حتى جهّز لي متجراً ومضيت معهم. وقال لهم: «لا تدعوه يدخل مصر بل اتركوه في دمشق ليبيع متجره فيها». ثم سافرنا

وودّعت والدي وخرجنا من الموصل، وما زلنا مسافرين حتى وصلنا إلى حلب فأقمنا بها أياماً ثم سافرنا إلى أن وصلنا إلى دمشق، فرأيناها مدينة ذات أشجار وأنهار وأثمار وأطيار كأنها جنّة فيها من كل فاكهة، فنزلنا في بعض الخانات واستمرّ بها أعمامي حتى باعوا واشتروا وباعوا بضاعتي، فربح الدرهم خمسة دراهم. ففرحت بالربح، ثم تركني أعمامي وتوجّهوا إلى مصر».

وأخرجت بعض الكتب الأخرى، كنتُ قرأتها في أوقات سابقة، علّني أجد بعض ما يُشيح عني الكآبة. وتوقّفت عند الصفحات الأولى من «جوستين»: «أولاً وقبل كل شيء، ما كنه مدينتنا هذه؟ ما الذي تبعثه في النفس كلمة اسكندرية؟ في لمحة خاطفة أرى بعين خيالي ألف شارع كتم الغبار أنفاسها. إنها اليوم مُلك الذباب والشحّاذين... كان عليّ أن أحضر إلى هذا المكان حتى أعيد من جديد تشييد تلك المدينة في ذهني تشييداً كاملاً. المناطق التي تخيّم الكآبة عليها كما رآها الرجل الشيخ مليئة بحطام حياته الأسود».

اتّصل بي وليد مالك وأخبرني أن ابراهيم شيبان يرغب في لقاء لمناقشة بعض الأمور. حين وصلنا إلى مبنى الجمعية حوالي الثامنة من مساء يوم الاثنين منتصف شهر آب، لم يكن ثمّة ضوء غير ذلك المنبعث من غرفة الاجتماعات في الطابق العلوي. توجّهنا مباشرةً إلى حيث الضوء الوحيد، كان ابراهيم شيبان يقلّب أوراقاً كثيرة أخرجها من ملفّات أمامه فوق الطاولة، فبدا كئيباً كأنّه لم يستيقظ من الصدمة التي أصيب بها بوفاة الأستاذ. قال، بعد أن جلسنا: «إنها لمفارقة محزنة أن يرحل قبل أسابيع من الاحتفال الذي كنّا

سنقيمه لتكريمه». وأضاف: «ومع ذلك فإن الحفل الذي سيقام لتكريمه لا بدّ أن يكون مناسبة لإظهار دوره في المدينة خلال نصف قرن من التأريخ، كما أنها مناسبة لنقول إن الجمعية ما زالت مستمرّة بأفكاره التي بثت الروح في هذا الصرح».

نظر إلى الأوراق أمامه وقال: «لقد عكفت في الأيّام الماضية على مراجعة جميع الوثائق التي تحفظ تراث الجمعية منذ أيامها الأولى، ومن الضروري أن نقوم بعمل سريع لكي نستخلص منها المواقف البارزة والأعمال والنشاطات التي قام بها كامل محرّم». وتطلّع نحوي وقال: «كنتُ أتمنّى أن يكون مشروعنا من أجل إحياء تاريخ المدينة جاهزاً، ولكننا سنضطرّ إلى تأجيله حتى مناسبة أخرى».

كنتُ لا أزال منهمكاً في مراجعة الملفّات التي طلب إليّ ابراهيم شيبان قراءتها وتلخيصها، صبيحة يوم الأربعاء، حين تلقّيت اتّصالاً غير متوقّع؛ كانت المتكلّمة نوال سريّ الدين التي عرّفت بنفسها وقالت لي إنها بحثت عن رقم هاتفي خلال اليومين السابقين حتى وجدته، وعاتبتني عتباً لطيفاً، اذ قالت إنها كانت تنتظر أن أتّصل بها لمتابعة الحديث حول آثار المدينة كما وعدتها. فاعتذرت بسبب انشغالي. فقالت: «على أي حال سنتحدث في هذه الشؤون لاحقاً، ولكني أتّصل بك لأن السيدة هند الأشرفي تريد أن تلتقي بك لتناقشك في بعض الأمور»، فشعرت أنني واقعٌ في سوء تفاهم، لكنها لم تترك لي مجالاً للاستفسار أو الاعتذار، إذ أضافت: «سيمرّ السائق لاصطحابك في الرابعة بعد الظهر، وسأكون هناك بانتظارك».

لم أتوصّل إلى معرفة الأمور التي تريد هند الاشرفي أن

تناقشها معيَ وتساءلت، وقد شعرت بالضيق: ما الذي بعث كل هؤلاء الناس فجأة، كأنهم كانوا على موعد، يأتون من كل الحقب التي طواها الزمن، كأنّ الماضي رجع بأشباحه المتوارية. وشعرت كما لو أنني المسؤول عن إخراج الحكايات من الصناديق الصدئة، وقلتُ في نفسي: لعلّني دخلتُ أبواباً كان يجدر أن أتركها مغلقة، أو فتحت كتباً فأثرت الغبار الذي يتراكم فوقها منذ سنوات طويلة.

كلّ ما كنت أعرفه عن السيدة التي التقيتها مصادفة في منزل أمين سريّ الدين، أنها زوجة مصطفى الأشرفي الذي ورث الزعامة عن والده. كان تلميذاً لكامل محرّم في المعهد العلمي، متأثراً بأفكاره. فانخرط في شبابه في نشاطات الجمعية، مبدياً انفتاحاً على الأفكار الجديدة. وأحسن استخدام موهبته الخطابية فبرز فوق المنابر، وقد هاجم في إحدى خطبه المبكرة الإقطاع والطبقات القديمة، حسب التعابير الشائعة في ذلك الحين. وقد أبدى نشاطاً جعل كامل محرّم يرفعه إلى عضوية الهيئة الإدارية. وأبدى نفس النشاط والذكاء في جمع شمل العائلة تحت زعامته. وكان على أهبّة أن يحصد ثمار أعماله حين داهمه الموت في سنّ الخمسين قبل أكثر من عشر سنوات، فانطفأ ذكر العائلة، وكرّست زوجته وقتها لتنشئة ولديها، سعد الذي درس الهندسة كوالده، وهدى التي تزوّجت حفيد نجيب البكري قبل ثلاث سنوات.

وقد عاشت هند الأشرفي في المنزل نفسه الذي انتقلت اليه مع زوجها في شارع المحطّة الذي لا يزال أهدأ شوارع المدينة. وكان قد عاش من قبل في المنزل الذي بناه والده غير بعيد عن المبنى الذي يسكنه أمين سريّ الدين في

الساحة العامّة. وكان سعد الأشرفي الكبير قد عاش قبلاً في منزل العائلة في ناحية تحت القلعة غير بعيد عن منزل سعيد التيّان.

عندما وصلتُ في الرابعة بعد الظهر، كانت السيدتان بانتظاري، وقد بدت نوال سريّ الدين التي لبست فستاناً خفيفاً يناسب حرارة شهر آب، وربطت شعرها الأشقر، في سنّها الحقيقي الذي لا يتجاوز الخامسة والثلاثين. وقد أفصح المرح الذي استقبلتني به عن طبعها، فأحسست كأنّني أعرفها منذ زمن طويل.

جلسنا في قاعة الاستقبال المزدحمة بأنواع مختلفة من الأثاث، ولفتت نظري زيتية لسعد الأشرفي الكبير، ولوحات أخرى تمثّل مناظر طبيعية بينها واحدة لفرّوخ وأخرى لعمر الأنسي. سألتني نوال عن عملي، فأخبرتها باختصار أنني لم اكن أتصوّر أن الأمور ستتشعب إلى الحدّ الذي وصلت اليه، وعادت لتسألني: «ألا تضجر من قراءة كل هذه الأخبار التي مضى عليها الزمن؟». فقلت لها: «إن الملَل قد تسرّب إلى نفسي، ولكن من الضروري أن أتابع»، فقالت ضاحكة: «أستطيع أن أساعدك اذا شئت»، فأجبتها: «هذا ما أحتاجه فعلاً».

تدخّلت هند الأشرفي قائلة: «نحن الذين نحتاج لمساعدة الأستاذ» وكانت تقصدني، فشعرت أن الأمور تتحوّل سريعاً إلى الجدّ. وأضافت: «أخبرتني نوال أنك تهتمّ بتاريخ المدينة، وأنك صاحب خبرة في هذا المجال»، فحاولت أن أشرح لها بأن الأمر لا يعدو كونه تحضيراً لإعداد مشروع أفكار، لكنّها تابعت كأنها لم تسمعني: «إنك ولا شكّ تعرف الدور الذي لعبته العائلة في تاريخ

المدينة، ولا بدّ أنك قرأت عن سعد الأشرفي الذي كان أحد القادة أيام النضال في زمن الانتداب، تلك الفترة التي لا يعرفها الجيل الجديد للأسف».

بدت هند الأشرفي عارفة لما تريد. وقد أضافت دون أن تنتظر رأياً منّي: «لقد عمل مصطفى الأشرفي في شؤون السياسة منذ كان على مقاعد الدراسة، وقد أصبح عضواً بارزاً في جمعية الثقافة وقدّم الكثير من الخدمات لها».

صمتت للحظات ثم تابعت: «إن جزءاً من تاريخ المدينة قد صنعته العائلة، كما أن وثائق هذا التاريخ لا زالت محفوظة في المنزل، ولا بدّ أن نفعل شيئاً من أجل إظهارها وإبراز ما بداخلها».

كانت لا تزال تتحدّث حين دخل ابنها سعد ومعه المحامي توفيق عبدالله، فاعتذرا عن التأخير، وبادر المحامي إلى التفسير، وقال: «كنتُ أرافق الأستاذ سعد في أحد اللقاءات مع أهالي حيّ الجديد في حيّ الخضرية»، وأضاف: «أرجو أن لا يكون فاتنا الكثير من الحديث».

عادت هند الأشرفي إلى متابعة كلامها كأنها تسألني: «إنك ولا شك قد عرفت من خلال اطّلاعك، أن سعد الأشرفي الكبير هو الذي دعم الجمعية بمبلغ كبير، فتمكّنت من الانتقال إلى مبناها في الساحة العامّة»، وأضافت: «إن زوجي هو الذي واصل الدعم للجمعية بعد وفاة والده».
قلت: «لقد سمعت بذلك». فأجابت: «لحسن الحظ، لأنّ الكثيرين يجهلون الأمر أو يتجاهلونه. ومن الضروري أن نعمل من أجل إبراز هذه الأمور». وقالت بشيء من التصميم: «لقد كبر ابني ومن حقّه أن يعود إلى المكان الذي كان ينبغي أن يحتلّه والده».

تكفّل المحامي بتلخيص الأمر، وقال متوجّهاً إليّ: «إننا نحتاج إلى خبرتك في الكشف عن تاريخ العائلة ودورها. كما نحتاج إلى تعاونك من أجل النهوض بالجمعية، خصوصاً أن سعداً سيشارك في الحفل الذي سيقام في ذكرى كامل محرّم. وستكون مناسبة لظهوره الأول». فهزّ سعد رأسه موافقاً دون أن يعلّق.

في نهاية الأسبوع، وكان الوقت مساءً عندما تهيّأت للخروج من المنزل، سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، فتساءلت: مَن عساه يأتي إلى زيارتي في مثل هذا الوقت؟ وحين فتحت الباب تفاجأت بشاب أراه للمرة الأولى، وقد عرّف بنفسه باقتضاب، فلم أحفظ اسمه، وقال: إن هشام درويش يرغب بلقائي، وإنه مستعدّ لزيارتي أو استقبالي في مقرّ جمعية الإرشاد حين أشاء.

كنتُ التقيت مرة وحيدة بهشام درويش، وذلك في منزل كامل محرّم، بصفته عضواً قديماً في جمعية الثقافة. لكنني سمعت اسمه مرات عديدة في معرض الحديث عن دوره ونشاطه منذ تركه للجمعية، وتأسيسه لجمعية جديدة، ولم أكن في جميع ما سمعته قد كوّنت حوله فكرة واضحة. وداخلني اقتناع بأن شيئاً من الغموض يحيط بشخصه. وقد تأكّد لي ذلك خلال لقائي السابق به، فقد بقي صامتاً، سوى العبارة غير الودّية حول المشتغلين بالوثائق.

في الطريق إلى موعدي معه في مقرّ جمعيته القائم في حيّ ضهر الزيتون، كنتُ أفكر بنموّ العمران السريع في تلك الناحية الشرقية من المدينة وشحوبه. كأنه بُني على عجل، مبان متشابهة ليس لأيّ منها ما يميّزها عن سواها. وقد ارتفعتْ جميعها في سحابة ربع القرن الأخيرة، وقد

جاء سكّانها من مناطق مختلفة من الأرياف المجاورة ومدن بعيدة، فاختلط أهل المدينة بكثرة الوافدين الذين استقرّوا في هذه الناحية كما في سواها. وتساءلت ما الذي يعرفه القاطنون هنا عن تاريخ المدينة ووقائعها التي طواها الزمن وعائلاتها ورجالها؟ هم الذين جاءوا من جهات بعيدة متفرّقة، ما الذي يعرفونه عن سكّة الحديد والسرايا وفنادق عهد الانتداب، والأزمنة التي تلته، عن المعهد العلمي والجمعية وكامل محرّم ورفاقه؟ وتساءلت: ما الذي يفعله هشام درويش في هذا الوسط الذي انتقل اليه منذ تأسيسه جمعية الإرشاد التي يتفرّغ لرعاية نشاطاتها.

كان هشام درويش طالباً في المعهد العلمي، وواحداً من أفراد الجيل الثاني الذي انخرط في نشاطات الجمعية في وسط الخمسينات، وكان لا يزال طالباً في الصفوف الثانوية. فساهم بنشاط وهمّة بارزة في حملات الجمعية لجمع التبرّعات لنصرة ثورة الجزائر، وحمل السلاح في ثورة ١٩٥٨، فاشتهر بجرأته وصلابته وتبوأ مكانة مرموقة بين أقرانه. وينتسب هشام درويش في الأصل إلى عائلة متوسطة من عائلات المدينة. كان جدّه مختار محلّة العقبة، إلا أنه نشأ يتيماً، وقد تبنّاه كامل محرّم، بسبب نباهته فأعفاه من الأقساط المدرسية، وتابع تحصيله الجامعي في إحدى الموادّ العلمية وصار أستاذاً في إحدى الثانويات، واستمرّ على نشاطه في جمعية الثقافة، لكنه غادرها في وسط الستينات، ومع ذلك احتفظ بوفائه لأستاذه القديم، فلم يقطع صلته به. ومن المفارقات التي لم أدرك كنهها أن كامل محرّم كان يعتبر أن نجاح هشام درويش في تأسيس جمعية الإرشاد هو علامة على نباهة تلميذه القديم، ولا

ريب، فإن ذلك يعبّر عن تحوّل في أفكار الأستاذ نفسه، وعن عمق رؤيته.

لكن الشيء الأكيد أن هشام درويش نفسه، قد تحوّل بأفكاره، وليس معروفاً كيف أجرى هذا التبديل من أفكار العروبة إلى دعوة الإرشاد. لكن من المعروف أنه لم يكن وحده الذي أبدى مثل هذا التحوّل في سنوات لاحقة لمغادرته جمعية الثقافة وشروعه بعمله المستقل.

خمّنتُ أن هشام درويش سيكلّمني عن وثائق المحكمة. ولم أكن مخطئاً في تقديري، ولكن الحديث بيننا تشعّب إلى مسائل كثيرة أخرى. عند وصولي إلى مقرّ جمعيته استقبلني مرحباً بزيارتي التي لم يكن يتوقّعها، حسب عبارته، وعندما جلسنا في الغرفة التي هي مكتبه، أخبرني أنه ينصرف الآن إلى شؤون جمعيته التي اتّسع نشاطها وازداد عدد أعضائها. وقال لي: «أتابع نشاطك، وقد علمتُ أنك قمت بزيارة لهند الأشرفي!»، فتعجّبت كيف عرف بذلك؟ ولكنه تجاهل تعجّبي، وأضاف: «لا شيء يُخفى في هذه المدينة». ثم بدّل الموضوع وقال: «البحث في تاريخ المدينة أمر شائك. وأسوأ ما في الأمر إخضاع الوثائق والوقائع لوجهات نظر ومصالح. إنهم يريدون أن يستخدموا التاريخ ليثبّتوا مواقعهم ويستعيدوا ما كان لهم، كما يعتقد ابراهيم شيبان أو هند الأشرفي، لكنهم لن يتمكّنوا من ذلك، فقد تجاوزهم الزمن».

قلت له: «ولكنك كنتَ عضواً في جمعية الثقافة مع كامل محرّم وابراهيم شيبان؟»، ففتح سؤالي باباً لم يعد إلى إغلاقه أبداً، قال: «هذا صحيح، فقد كنتُ واحداً من الذين دخلوا الجمعية مثل الكثيرين من أبناء جيلي الذين

اعتبروها أملهم في المستقبل الذي ينشدونه لأمّتهم».

وتابع: «حين كنت عضواً مبتدئاً في وسط الخمسينات قمت بكل النشاطات فجمعنا التبرّعات وشاركنا في الإضرابات وتوزيع البيانات وتنظيم المظاهرات وشكلنا اللجان لمساعدة المنكوبين بعد الطوفان. لكنّ الأمور أخذت بالتبدّل بعد ذلك، فغرقت الجمعية في الشؤون المحلّية وصارت مطية لابن الأشرفي الذي كان معنا في اللجان التي كانت تجوب الشوارع في كل المناسبات. وكان كثير الحماس والضجيج يلقي الخطب ويهاجم الزعامات، وكان يحسن التكلّم بكل الخطابات والمناسبات، وبنفس الحماس رجع إلى العائلة، وتزوّج ابنة سريّ الدين»، فسألته، وقد لاحظ دهشتي: «هند الأشرفي؟» قال: «نعم هند سريّ الدين ابنة عم أمين سريّ الدين وحفيدة عبّاس الكبير!». عدت أسأله: «وماذا كان رأي الأستاذ؟» قال: «الأستاذ كان يتصرّف كأنه الأب، مثل المدينة التي تحتضن جميع أبنائها، وقد ظنّ أن جمعيته والمدينة رديفان لا يختلفان. فلم يتنبّه إلى أنهم قد أخذوا جمعيته وجعلوها خاصتّهم واستعملوها مطية لأغراضهم. وقد تمكّنوا من استقطاب العديدين من شباب الجمعية الذين كانوا ينتقلون آنذاك من مقاعد الدراسة إلى حياة العمل باحثين عن الوظائف. فلم تعد الجمعية ما كانت عليه من قبل». وأضاف: «إلا أنّ الكثيرين كانوا غير راضين عن هذا التحوّل، فغادروا الجمعية بالعشرات وتفرّقوا في اتجاهات مختلفة، ومنهم ابراهيم المقدسي الذي هاجر إلى اميركا، وآخرون اعتزلوا العمل العام»، وأضاف: «أما أنا فقد عرفت كيف أختار طريقي».

سألته: «ألم يتنبّه كامل محرّم لهذا التبدّل؟» فأجابني:

«الوحيد الذي لم يتغيّر هو كامل محرّم، لأنه كان يستشعر التبدّلات قبل حدوثها فيطوع نفسه لاستقبالها، فهو يعبّر عن روح التحوّلات في المدينة. ولهذا السبب حين أسستُ جمعية الإرشاد جاء لتهنئتي، وقال لي: إن الدعوة والإرشاد أساس تاريخنا وعقيدتنا، فلم أستغرب منه ذلك. فهو أبلغ من يمثل المدينة. لقد نشأ في زمن الثورة العربية الشريفية، وحين جاء عهد الانتداب صار مناضلاً، وفي الزمن الاستقلالي كان استقلالياً، وفي الخمسينات صار وحدوياً وفي أول الستّينات ترك الأمر لابن الأشرفي، فقد أصابه الوهن، وكان يظنّ أنه يستطيع أن يحافظ على جمعيته ووحدتها، ومنذ ذلك الوقت قرّرت أن أختار طريقي، التي كان اختارها لو كان في عمري... إن كامل محرّم هو المدينة في تقلّباتها ومع ذلك فإنها تبقى كما هي ولا تتغيّر».

سألته: «أتعتقد أن المدينة لم تتغيّر؟»، قال: «لقد تغيّرت كثيراً، ولكنها حافظت على جوهرها الأصلي الذي يجدر أن نحافظ عليه، المتمثّل بنواتها الأصلية. مساجدها ومدارسها ووثائقها وأعمال رجالها ونشاط أسواقها».

صمت لحظات ثم تابع: «إن الكثير من الأمور تحتاج إلى جهود، وقد آن الأوان لنقوم بعمل نافع للمدينة»، وتطلّع نحوي وقال: «أتمنّى أن تشاركنا مشروعنا الجديد من أجل إبراز شخصية المدينة وتراثها، فنحن نحتاج إلى خبرتك في هذا المجال».

كانت لهشام درويش رؤيته الخاصة للتاريخ. قال شارحاً مشروعه: «إنني مهتمّ بعملك في دراسة تاريخ المدينة، وخصوصاً دراسة الوثائق الشرعية، فهي تاريخنا الحقيقي

والصلة التي تربط الحاضر بالماضي. وهذه العمائر والمباني والآثار ليست شيئاً لولا النظام الشرعي الذي أوجدها وضمن استمرارها وجعلها تستمرّ طوال قرون من الزمن». قال موضحاً: «إلاّ أنها لم تستمرّ لولا تضافر المجتمع وتكافله من أجل الحفاظ عليها».

كان اندفاعه في الكلام يزيد من حماسه، قال: «لسنا بحاجة في جمعيتنا لأن ندعو إلى ترميم الآثار، لأنّ عملنا كله يدور في هذا الميدان، لكن التراث الذي يجدر أن نحافظ عليه هو ما نؤمن به ويعيدنا إلى حقيقتنا».

وأسرّ لي في النهاية: «لقد افتتحنا فرعاً جديداً في المدينة القديمة نجعله في إحدى المدارس التي أعدنا ترميمها وتأهيلها وسنقوم بافتتاحه خلال أيام».

II

أوراق كثيرة تجمّعت فوق طاولتي، أمضيت الأسبوع الأخير من شهر آب أقلّبها وأسجّل ملاحظاتي التي أدوّنها في أوراق أحفظها على حدة. ابتدأت بتلك الأوراق المحفوظة في الملفّات التي أعطاني إياها ابرهيم شيبان، والتي تشتمل على مستندات كثيرة تتعلّق بنشأة الجمعية وسنواتها الأولى خصوصاً.

لم تضف الأوراق الكثير إلى ما أعرفه حول الجمعية وتاريخها ونشاطاتها وقد كوّنته من مصادر مختلفة، لكنّ مجموعة أعداد النشرة الدورية التي كانت تصدرها الجمعية وتحمل اسم النشرة الثقافية، مدّتني بالمزيد من المعطيات حول الأفكار التي كانت تبثّها الجمعية، والتي نجد أصداءها

في الافتتاحيات التي يكتبها كامل محرّم، وقد ركّز فيها على ضرورة الاعتناء بالتاريخ الثقافي مستعيداً في عدد من الافتتاحيات دور العرب في التراث العلمي الذي استفادت منه الحضارة الحديثة. وفي أعداد أخرى من النشرة اهتمّ بشكل خاصّ بالدعوة إلى الاعتناء بالمسألة التربوية التي تعني إعداد أجيال جديدة تضمّها المدارس التي هي إطار التربية والتعليم.

كان ذلك في أعداد النشرة العائدة إلى سنواتها الأولى، أما في السنوات اللاحقة، فقد غلبت على همومها المسائل الوطنية والسياسية ومناقشة المسائل العقائدية. ولم تخلُ النشرة من تعريض بالاتجاهات العقائدية الأخرى من اجتماعية سورية واشتراكية وشيوعية، التي يقول كامل محرّم في إحدى الافتتاحيات، إنها لا تناسب معتقداتنا وتاريخنا.

وأهمّية النشرة تكمن أيضاً في تقديم سجلّ دوري بنشاطات الجمعية، وخصوصاً في برامج المحاضرات التي كانت تُقام في مقرّ الجمعية. وقد شارك فيها مفكّرون وأدباء، مثل قسطنطين زريق وعبدالله العلايلي، واستقبلت محمود تيمور من مصر وأحمد الصافي النجفي من العراق، ومفدي زكريا الذي كتب النشيد الوطني الجزائري.

وقد أحيت الجمعية، حسبما تذكر نشرتها، المناسبات الوطنية؛ فكانوا يحتفلون في البداية بيوم ميسلون، ثم تناسوه حين صاروا يحيون ذكرى الجلاء فأهملوه حين صاروا يدعون إلى الإضراب في ذكرى التقسيم، واحتفلوا بعد ذلك بذكرى معركة القنال وإعلان الوحدة.

أوراق كثيرة هي وثائق جمعية الثقافة الأهلية تحكي

وقائع كثيرة وتسجل بشكل خاص انعكاسها في المدينة التي كانت في تلك المدّة كناية ورمزاً للأمّة برمّتها.

كانت كمّية الأوراق التي قدّمتها لي هند الأشرفي، وطلبت إليّ أن أحرص على الاعتناء بها، أقلّ حجماً من تلك الخاصّة بالجمعية. ولفتت انتباهي مجموعة من الصور الفوتوغرافية لسعد الأشرفي مع عدد من وجوه المدينة أخذت في مناسبات مختلفة. وأغلب المستندات الأخرى هي قصاصات من الصحف تخبر عن نشاطات واستقبالات قام بها سعد الأشرفي. وكان بين المستندات كتيّبان يحمل الأوّل منهما عنوان «القانون الأساسي لكشّافة العهد» التي ترأسها سعد الأشرفي، وهي جمعية تعمل على إعداد الشبيبة للخدمة العامّة ومساعدة المحتاجين والتمثّل بالقيم والأخلاق. أما الكتيّب الآخر فقد صدر بمناسبة مرور خمس سنوات على تأسيس «كشّافة العهد» ويضمّ سجلاً بالنشاطات التي قام بها أعضاء الجمعية الكشفية، مثل عرض حملة المشاعل بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال، وتنظيم حملة نظافة في شوارع المدينة، والمساهمة بحملة لجمع تبرّعات من أجل مساعدة المحتاجين، وإقامة مخيّم سنوي ريفي لمدّة عشرة أيّام في إحدى قرى المحافظة.

ويبدو سعد الأشرفي من خلال أوراقه وجيهاً يشارك في عضوية مجلس إدارة دار الشفاء الأهلي، ويسهم بمبلغ من المال لبناء دار الشفاء، بالإضافة إلى مساهمته في التبرّع لعدد من المؤسّسات الخيرية.

وتختلف المستندات المتعلّقة بمصطفى الأشرفي، فأغلبها يتعلّق بمشاركته في مناسبات وحفلات خطابية، بالإضافة إلى مجموعة من القصاصات الصحافية التي تذكر بعض

نشاطاته، ومن بينها بشكل خاص مشروع أعدّه لاستصلاح شبكة مياه المدينة واقتراحه لإقامة ملعب بلدي.

وأهمّ تلك الأوراق المتعلّقة بمصطفى الأشرفي، مشروع، ضربه على الآلة الكاتبة، يهدف إلى إقامة جمعية لإنماء المدينة. ويبدو أنه واحد من المشاريع التي لم تبصر النور. ولكنّه يدلّ على اتّجاهه لفكّ ارتباطه بجمعية الثقافة الأهلية. والأمر الذي لفت انتباهي خلوّ الأوراق من أيّ إشارة إلى «كشّافة العهد»، التي يظهر أنها انتهت مع وفاة مؤسّسها.

انتقلت إلى مجموعة المستندات التي قدّمها لي هشام درويش، وهي موزّعة في ثلاثة مغلّفات. الأوّل يضمّ القانون الأساسي للجمعيّة وأهدافها ونشاطاتها التي قامت بها منذ تأسيسها، وهي نشاطات خيرية واجتماعية وتوجيهية بدأها ببطء منذ عام ١٩٦٣. ويتضمّن المغلّف الثاني الوثائق المتعلّقة بتأسيس مدرسة الارشاد التي تسعى أن تصبح معهداً عالياً للإرشاد. أما المغلّف الثالث فيضمّ بعض خطط لمشاريع قيد الإعداد، وتندرج تحت مشروع مشترك يطلق عليه اسم مجمع الإرشاد الثقافي الذي يضمّ مسجداً وقاعة محاضرات ومكتبة تشرف عليها لجنة دعاني إلى المشاركة فيها.

الشجرة أمام مقهى الزجاج

I

كنتُ أفكّر في العودة للقاء الشيخ ياسين الظاهري، وحده يستطيع أن يشرح لي الأمور الغامضة التي اكتنفت علاقات الذين أمسكوا بزمام المدينة في الأربعينات والخمسينات، وتلك الصراعات الصامتة حول الجمعية. كما كنت أريد أن أستوضحه بعض المسائل التي قرأتها في الجرائد التي أصدرها. حين جاء وليد مالك لزيارتي، أخبرته بنيّتي في لقاء الشيخ الظاهري فأبدى رغبة في مرافقتي. مضينا إلى نزل الأمراء صبيحة يوم السبت، ودخلنا القاعة الرئيسية. كان الرجل الجالس خلف الطاولة في مكانه كأنه لم يغادره منذ زيارتي السابقة قبل شهر. سألته عن الشيخ الظاهري، فقال: «لقد غادر النزل قبل أسبوع»، وحين استفسرت عن الجهة التي ذهب إليها، قال إن الشيخ ياسين قد مرض مرضاً شديداً، فحضر ابن شقيقته ونقله إلى المستشفى. وعندما سألته عن اسم المستشفى، قال إنه يجهله.

شعرت بكآبة وأحسست بثقل يضغط على صدري. ونظرت إلى وليد مالك الذي كان يشاركني خواطري في

تلك اللحظة، وقال لي: «لم يبقَ لك إلا حسن البدوي». فسألته: «هل تعرفه؟»، فلم يجب عن سؤالي.

في الساعة الرابعة من بعد ظهر أوّل جمعة من شهر أيلول، توجّهت إلى مقهى الزجاج آملاً أن ألتقي بحسن البدوي الذي يتردّد إلى هذا المقهى كل يوم بعد العصر، كما فعل طوال أيّام حياته. كنت أظنّ أنه يقترب من سنّ الثمانين، ولكنه أخبرني أنه تجاوز الخامسة والثمانين، إذ إنه ولد في أوّل القرن، وأضاف، هازئاً، أنه ينوي أن يعيش حتى نهايته.

كان مقهى الزجاج الذي أقصده في مكانه الذي استقرّ فيه قبل أكثر من مئة سنة. ولم أستطع أن أدرك كيف أمكنه الثبات في موقعه بالرغم من التغيّرات التي طرأت على الساحة أمامه، التي وسّعت بعد هدم بعض المباني في الجهة المقابلة. لكن المكان الذي كان يُعرف سابقاً باسم ساحة الخاتونية، غلب عليه اسم ساحة المقهى، بالرغم من أن الدائرة البلدية أعطت للامتداد الذي لا يتجاوز عشرة أمتار اسم «ساحة ٦ أيار». إلا أن هذا الاسم لا يعدو كونه لوحة معدنية معلّقة عند زاوية أحد الأبنية، لا يعيره المارّة أي اهتمام ولا يدخل في أي استخدام.

حين صرت في طرف الساحة التي يقوم عندها المقهى، لم أجد أيّة علامة تدلّ على اسمه، فبدا أشبه بالدكاكين التي تجاوره لولا الكراسي التي وضعت على الرصيف أمام واجهته الزجاجية. وقد غطّى الظلّ الرصيف بعد أن توارت الشمس خلف المبنى، بانتظار الزبائن الذين يأتون لتدخين الأراكيل. هذا المقهى الأمين لتقاليده واحد من بين عدد قليل من المقاهي التي لا تزال تقدّم هذه الخدمة، لذا فإن

الزبائن يأتون من أوساط مختلفة فلا يجمع بينهم سوى الرغبة في تدخين هذه الآلة التي يصعب نقلها أو إعدادها. وبطبيعة الحال فإنه مقهى ذكوري لا تطأ عتبته امرأة، كما آل إليه حال أغلب المقاهي في المدينة.

لا أذكر أني دخلت هذا المقهى من قبل. حين بلغته بعيد العصر يوم الجمعة في أوائل شهر أيلول، كانت الطاولات والكراسي المنتشرة فوق الرصيف تشكّل مشهداً مندمجاً في هدوء الشارع، وقد أدخلت الشجرة الوحيدة التي تتقدّم المقهى حياة في طبيعة صامتة. وقد بدا لي المشهد برمّته، على بعد عشرة أمتار، أكثر إلفة من الصورة التي رسمتها له في خيالي، وتساءلت: كيف يبدو في الأوقات الصباحية حين تضجّ الساحة الصغيرة بالحركة؟ فحسبت أن القيّمين على المقهى لا يفتحون أبوابه إلا في ساعات بعد الظهر، بل تخيّلت الشجرة الوحيدة التي تضفي على الساحة لجهة رصيف المقهى جوّاً أنيساً، تختفي في صباحات العمل لتعود الى مكانها في الساعات السابقة لغروب الشمس.

حين اقتربت من المقهى، تنبّهت إلى أنني، كعادتي، لم أحضّر أفكاراً ولم أعدّ أسئلتي. وقلت في نفسي: هل سأعرفه بمجرّد أن أراه؟ فقد غابت ملامحه عن خاطري. وحين أصبح المشهد الداخلي للمقهى قبالة نظري، لفتت انتباهي لوحة تمثّل منظراً طبيعياً. كان إطارها البنّي الذي يعلوه غبار متراكم لا يتناسب مع ألوان اللوحة التي يغلب عليها اللونان الأزرق والأخضر. وكان عدد الزبائن في الداخل لا يتجاوز خمسة أو ستّة أشخاص. ولم يطل تردّدي، فما إن دخلت حتى بادرني أحد عمّال المقهى: «تفضّل أستاذ»، كأنه يقول لي: «ماذا تريد؟»، فسألته عن

تلك اللحظة، وقال لي: «لم يبقَ لك إلا حسن البدوي».
فسألته: «هل تعرفه؟»، فلم يجب عن سؤالي.

في الساعة الرابعة من بعد ظهر أوّل جمعة من شهر أيلول، توجّهت إلى مقهى الزجاج آملاً أن ألتقي بحسن البدوي الذي يتردّد إلى هذا المقهى كل يوم بعد العصر، كما فعل طوال أيّام حياته. كنت أظنّ أنه يقترب من سنّ الثمانين، ولكنه أخبرني أنه تجاوز الخامسة والثمانين، إذ إنه ولد في أوّل القرن، وأضاف، هازئاً، أنه ينوي أن يعيش حتى نهايته.

كان مقهى الزجاج الذي أقصده في مكانه الذي استقرّ فيه قبل أكثر من مئة سنة. ولم أستطع أن أدرك كيف أمكنه الثبات في موقعه بالرغم من التغيّرات التي طرأت على الساحة أمامه، التي وسّعت بعد هدم بعض المباني في الجهة المقابلة. لكن المكان الذي كان يُعرف سابقاً باسم ساحة الخاتونية، غلب عليه اسم ساحة المقهى، بالرغم من أن الدائرة البلدية أعطت للامتداد الذي لا يتجاوز عشرة أمتار اسم «ساحة ٦ أيار». إلا أن هذا الاسم لا يعدو كونه لوحة معدنية معلّقة عند زاوية أحد الأبنية، لا يعيره المارّة أي اهتمام ولا يدخل في أي استخدام.

حين صرت في طرف الساحة التي يقوم عندها المقهى، لم أجد أيّة علامة تدلّ على اسمه، فبدا أشبه بالدكاكين التي تجاوره لولا الكراسي التي وضعت على الرصيف أمام واجهته الزجاجية. وقد غطّى الظلّ الرصيف بعد أن توارت الشمس خلف المبنى، بانتظار الزبائن الذين يأتون لتدخين الأراكيل. هذا المقهى الأمين لتقاليده واحد من بين عدد قليل من المقاهي التي لا تزال تقدّم هذه الخدمة، لذا فإن

الزبائن يأتون من أوساط مختلفة فلا يجمع بينهم سوى الرغبة في تدخين هذه الآلة التي يصعب نقلها أو إعدادها. وبطبيعة الحال فإنه مقهى ذكوري لا تطأ عتبته امرأة، كما آل إليه حال أغلب المقاهي في المدينة.

لا أذكر أني دخلت هذا المقهى من قبل. حين بلغته بعيد العصر يوم الجمعة في أوائل شهر أيلول، كانت الطاولات والكراسي المنتشرة فوق الرصيف تشكّل مشهداً مندمجاً في هدوء الشارع، وقد أدخلت الشجرة الوحيدة التي تتقدّم المقهى حياة في طبيعة صامتة. وقد بدا لي المشهد برمّته، على بعد عشرة أمتار، أكثر إلفة من الصورة التي رسمتها له في خيالي، وتساءلت: كيف يبدو في الأوقات الصباحية حين تضجّ الساحة الصغيرة بالحركة؟ فحسبت أن القيّمين على المقهى لا يفتحون أبوابه إلا في ساعات بعد الظهر، بل تخيّلت الشجرة الوحيدة التي تضفي على الساحة لجهة رصيف المقهى جوّاً أنيساً، تختفي في صباحات العمل لتعود الى مكانها في الساعات السابقة لغروب الشمس.

حين اقتربت من المقهى، تنبّهت إلى أنني، كعادتي، لم أحضّر أفكاراً ولم أعدّ أسئلتي. وقلت في نفسي: هل سأعرفه بمجرّد أن أراه؟ فقد غابت ملامحه عن خاطري. وحين أصبح المشهد الداخلي للمقهى قبالة نظري، لفتت انتباهي لوحة تمثّل منظراً طبيعياً. كان إطارها البنّي الذي يعلوه غبار متراكم لا يتناسب مع ألوان اللوحة التي يغلب عليها اللونان الأزرق والأخضر. وكان عدد الزبائن في الداخل لا يتجاوز خمسة أو ستّة أشخاص. ولم يطل تردّدي، فما إن دخلت حتى بادرني أحد عمّال المقهى: «تفضّل أستاذ»، كأنه يقول لي: «ماذا تريد؟»، فسألته عن

الحاج حسن البدوي، فأشار إلى الطاولة عند يسار المدخل.

كان حسن البدوي يجلس وحيداً، يحرّك أوراق اللعب التي نثرها فوق الطاولة أمامه. حيّيته وردّ التحيّة بدون أن يرفع نظره صوبي. وكان لا يزال منشغلاً بالأوراق التي يقلّبها ويتابعها بنظراته. وسألني: «ماذا تريد؟»، فأجبته: «أريد أن أسألك حول بعض القضايا»، فسألني: «طالب أم صاحب قضيّة؟»، فأجبت: «لا هذا ولا ذاك»، فتطلّع صوبي للمرّة الأولى وسألني: «ماذا تريد إذاً؟»، قلت: «أنت دعوتني حين التقينا في قاعة المحفوظات في المحكمة لدى الحاج خضر الصبّاغ»... قال كأنّه يتهكّم: «هذا أنت إذاً؟»، وارتسمت ابتسامة على وجهه وقال: «ألم ينصحوك بعدم رؤيتي وسماع رأيي؟»، فتجاهلت سؤاله، وقلت: «جئت أستوضحك بعض الأمور».

ساد صمت كان خلاله يجمع الأوراق المتناثرة فوق الطاولة. وقال: «إسمع يا أستاذ، لقد أمضيت خمسين سنة في مطالعة السجلاّت حتى حفظت أغلب ما فيها، وتلزمني سنوات مماثلة لأفهمها وأعرف أسرارها».

كان قد قال لي كلاماً مشابهاً في لقائنا المقتضب والوحيد في قاعة المحفوظات. فسألته: «أريد أن أعرف كيف بدأت بقراءة السجلاّت؟». شعرت أن تبدّلاً قد طرأ على ملامح وجهه، ثم اعتدل في جلسته قليلاً، وقال: «هذه قصّة قديمة، بدأت منذ زمن بعيد...»، وتوقّف ليسألني: «ماذا تريد أن تشرب؟»، قلت: «فنجان قهوة»، قال: «لا سأطلب لك فنجاناً من الشاي، لأنهم لا يعرفون كيف يعدّون القهوة في هذا المقهى البائس»، ثم تابع كلامه: «كان ذلك منذ خمسين سنة أو أكثر بقليل، حين كنت في بداية

عملي في المحكمة الشرعية. وقد جاء إلى المدينة أحد أساتذة الجامعة الأميركية، ومعه توصية من المفتي حملها إلى القاضي آنذاك عبد الحقّ نبهان، يطلب إذناً لمراجعة السجلاّت في المحكمة، وكنّا لا نزال في المبنى القديم للمحكمة والسجلاّت متروكة في غرفة لا يدخلها أحد، فأذن له القاضي بمطالعتها. وقد أوصاني أن أبقى معه. فمكث بضعة أيّام يقلّب فيها وينسخ بعض القضايا، وحدّثني عن أهمّية الوثائق، وقال لي: «هذه الوثائق كنز لا يعرف قيمته إلا القلّة من الناس، وإن وثائق مماثلة موجودة في القاهرة ودمشق وحلب وسواها من المدن. ومنذ ذلك الحين بدأت أتفحّصها، وأفكّ أحرفها وكلماتها. وأخذ القاضي يسألني عن بعض القضايا فأبحث عنها حتى أجدها، حتى صرت خبيراً في شؤونها، يأتي أصحاب المصالح والقضايا والوقفيّات لأفتش لهم عن بعض الوثائق».

توقّف عن الكلام وسألني: «والآن، ماذا تريد أن تعرف؟»، قلت: «كنت تبحث عن الوقفيّات، إذاً؟»، قال: «الوقفيّات ليست سوى جانب من الجوانب البسيطة في بحر آلاف القضايا التي تعرف من خلالها كل أخبار المدينة، ولا بدّ أنك لاحظت ذلك»، وأضاف: «ثم أن الوثائق تذكر أخباراً كثيرة، ونجد فيها أصول العائلات، وكثير من أبناء المدينة يأتون ليسألوني عن أنسابهم وأصولهم، فلا يصدّقون ما أرويه لهم من قصص عن أجدادهم. فقد كانت الأحوال في تلك الأيّام غير أحوالنا اليوم. خذ مثلاً شاكر الحمصي، ومن أحفاد أبنائه عبد الرؤوف، الموظّف في دائرة المالية، وقد دهش حين أخبرته أن جدّ والده قد تزوّج ثلاث مرّات،

وأنجب من كل واحدة أولاداً، وكانت زوجتاه الثانية والثالثة متزوجتين قبلاً، ولكل واحدة أولاد من زواجها الأوّل. ثم أن زوجته الثالثة تزوّجت بعد أن طلّقها، وأنجبت ولداً، فصار لها أولاد من ثلاثة رجال. هذا ما يحدث، ولك أن تقدّر مشاكل الإرث التي تطرأ بعد مرور الزمن...». ولكنّه أضاف: «كانوا أسعد حالاً من حالنا اليوم».

توقّف عن الكلام، وتطلّع صوب باب المقهى كأنه ينظر إلى البعيد، ثم تابع: «المدينة عالم عجيب، يأتيها الرجال من أمكنة بعيدة، فينسون أصولهم، وينتسبون إليها، فتعاملهم كما تعامل أولادها، وتعتبرهم أبناءها. يأتيها الفقير فيصبح غنياً ويجعل لنفسه أصلاً شريفاً كأن جدّه وُلد في مكّة أو كأنه من أحفاد ملوك اليمن». ونظر إليّ وقال: «ولكنك لا تستطيع أن تكتشف ذلك، إلا إذا تمتّعت بالصبر وطول البال. فكثير من العائلات بدّلوا أسماءهم وخصوصاً في الجيلين السابقين، وكثيرون ادّعوا نسباً وقرابة بعائلات لا صلة لهم بها. أنا لم أخترع شيئاً ولم ألفّق خبراً، ولكنهم اتّهموني بتلفيق القصص وتجنّبوني لكي لا أحدّثهم عن أصولهم». قال: «إسمع، العائلات الأصيلة معروفة، كانت في المدينة قبل السجلاّت وبقيت إلى يومنا تعرفها من تقواها وتواضعها. والأصل غير الجاه والمال، ثم إن المال لا يصنع أصلاً ولو حاول بعضهم أن يشتريه». واستطرد قائلاً: «أنا نفسي لست من المدينة، فقد جاء والد جدّي من إحدى القرى في الشمال، واستوطن وتزوّج وأنجب الأبناء والأحفاد، فصرنا أولاد المدينة التي يتّسع صدرها للجميع».

وأضاف، كأنه يريد أن يثبت انتماءه الى المدينة: «أنا لم أغادر المدينة إلا في الحرب العالمية الأولى لمدّة أسبوعين».

قلت له بشيء من الدهشة: «أسبوعان في الحرب الأولى؟».

قال: «أخذوني للجندية في الأيام الأخيرة من الحرب، ووضعوني مع آخرين في عاليه بانتظار تسفيرنا إلى جهة نجهلها، وكانت الفوضى تدبّ في المعسكر، فهربت في إحدى الليالي، وسرت في الوديان بعيداً عن الطرقات، لمدّة ثلاثة أيّام حتى عدت إلى المدينة، ولم أغادرها منذ ذلك الوقت».

توقّف عن الكلام للحظات، خشيت خلالها أن أقطع صمته، حتى سألني: «أين كنّا؟»، فقلت له: «الوقفيّات»، قال: «تسألني عن الوقف الذي هو أساس هذه المدينة والأصل في اجتماعها... إسمع، لولا الوقف لم يبق حجر ولم يعمّر مسجد أو سوق. بل إنه الأساس في تكوّن العائلات وانتساب كل جيل من أجيالها إلى الذي سبقه، كم من العائلات تفرّقت وتلاشت لأنها لم تبنَ على وقف يجمعها، لكن الوقف هو أيضاً الذي سبّب الخلافات التي قسّمت العائلات بسبب الحسد والطمع في الدنيا». قال: «أنظر إلى الصروح والقصور والعمائر والدور والدكاكين والمساجد والمدارس، إنها جميعها أوقاف حبسها أصحابها من أجل عمل الخير ومن أجل ذريّاتهم، فما كان يرتفع مؤذن بأذان ولا يعظ واعظ ولا يدرس عالم إلا ويحصل على مخصّصاته من الأوقاف. ولم تخرب الدور والقصور وتفتر التقوى إلا حين بدأوا يتلاعبون بالأوقاف متذرّعين بالتنظيمات، فاختلّ نظام المدينة بعد أن هدموا أسوارها».
فقاطعته متسائلاً: «السور، أين كان السور؟».

قال: «أسوار المدينة وبوّابتها، لا زالت باقية بأسمائها

رغم خرابها. كانت المدينة محدودة بأسوارها، ألم تقرأ في السجلاّت عن داخل المدينة وخارجها، باطنها وظاهرها؟».

قلت: «نعم»، قال: «كان الفقهاء يعرفون أين تقف حدود المدينة لأن ما يشرع داخلها، لا يصحّ خارجها. وحين تجاوزوا الأسوار عمّت البلايا، وفتحوا ثغرة في الفقه والأخلاق والقانون. ، وقالوا إنهم يريدون أن يجعلوا المدينة كلّها باباً ومحطّة ومرفأ، فكان لهم ما أرادوا، فتسرّب إلينا الفساد من كلّ جهة... رحم الله الشيخ المسيري، كان يقول «خراب الأوقاف، ضياع للحقوق وفساد للمدينة، وقد عرفت مصداق قوله حين قرأت السجلاّت».

سألته: «أتعرف الشيخ المسيري؟»، قال: «درست عليه في مدرسة سيدي عبد الواحد وأخذت عنه العربية والحديث. كان يريد الإصلاح، ولكنّه خاف حين رأى صغار الناس تسود وتشرع ولكنه لم ييأس، فانتقل إلى المعهد العلمي ليدرّس اللغة والتاريخ، وعندما مات لم يأت مثله». سألته: «هل درست في المعهد العلمي؟»، قال: «حين افتتح المعهد كنت قد تجاوزت سنّ الطلب وبدأت حياة العمل»، فسألته: «ألم تعرف كامل محرّم؟»، فأجابني: «كنت أعرف والده قبل أن أعرفه، جاء أحمد محرّم ومعه أفكار الثورة العربية فمشينا خلفه، ومشى خلفه الذين أرادوا أن يحفظوا رؤوسهم واتّصلوا بالإنكليز وعملوا لديهم وصاروا زعماء وقادة. ثم جاء ابنه بعده يريد أن يسير على خطاه وأسّس جمعيته فتلقفها أبناء الذين أحاطوا بوالده وجعلوها مطيّة لأغراضهم»، ثم نظر إليّ وقال: «جاءني مرّة كامل محرّم يسألني عن وقف أوقفه جدّ والده، فقلت له لا تتعب نفسك، فالمباني التي كانت لوالد جدّك هُدمت

وقامت مكانها مبان جديدة».

سألته: «ووقف الأشرفي؟».

نظر إليّ بشيء من الارتياب وقال: «أنت تسأل عن وقفِ الأشرفي؟ لقد جاءني مرّة المحامي توفيق عبدالله يسألني عن الأمر، فقلت له إذهب إلى آل الأشرفي واسألهم عن الأمر، فقد تنازل سعد الأشرفي عن حقوقه لأبناء عمومته لقاء أن يتخلّوا له عن الزعامة، كان ذلك في الثلاثينات، فدبّر أبناء أنور الأشرفي الأمر مع أولياء الأمر في ذلك الزمن وباعوا الأوقاف، فهدمت الدور التي كانت في طلعة الأحمدية، والآن يأتي أبناء الأشرفي ليتحدّثوا عن الأوقاف التي سلّموها للهدم».

وقال: «لا تحشر نفسك في شؤون لا تعنيك، فهذا أمين سريّ الدين يزين لابنة عمه زوجة مصطفى الشرفي أن تطالب بحقوقها، ويتحدّث عن آثار المدينة وتراثها، وكان أجدر بآبائه وأجداده ألا يهدموا المدينة وأحياءها حين كان الأمر بأيديهم».

نظر إلى الساعة وقال: «لقد أنسيتني الصلاة!»، فقلت له فيما كان ينهض: «يمكن أن أعود إليك في وقت لاحق»، قال: «لا تعد إليّ، بل إرجع إلى السجلاّت، ففيها كل ما تريد، وهي كل ما تبقّى... لقد خرّبوا المدينة وهدموا معالمها ليشقّوا الطرقات ويقيموا الساحات، فشوّهوا كلّ ما وصلت إليه أيديهم، فلم يبق شيء ولن يعود شيء إلى الوراء».

وقبل أن يغادر قال، دون أن ينتظر إجابتي: «ولكنك لم تخبرني لماذا تضيّع وقتك في أسئلة لا تنفع ولا تجدي؟».

II

حسبت الحاج حسن البدوي شخصية من شخصيات التاريخ الذي يرويه. وعندما عدت إليه في المقهى في اليوم التالي قال: «عرفت أنك سترجع، وأخذ يسرد الأخبار مبتدئاً بالوقائع الأقدم. وظننت أنه كان حاضراً في كل واقعة شهدتها المدينة، كان عند السور يقاتل الفرنجة، وكان في أعلى التلّ مع الجنود الذين جاءوا لطردهم. وكان مع البنّائين الذين بنوا الدور والمساجد تحت القلعة. ووقف متفرّجاً حين وصل العسكر العثماني إلى المدينة، وكان مع آل سيفا حين هاجمهم «المعني»، وفرّ من المدينة لحين ثم عاد إليها بعد أن أسره القراصنة، ودرس على علماء المدينة ووعظ في مدارسها، واستقبل الشيخ عبد الغني النابلسي حين حضر إلى المدينة، وزار معه المولوية وبادله شعراً بشعر. وتوسّط لدى الحكّام في تخفيف الضرائب عن أبناء المدينة، وعرف جدّ آل سريّ الدين الذي لم يأت من دمشق كما يقال، ولكنه عمل في تجارة صغيرة وفّرت له مالاً، ثم اشتغل بتهريب الموادّ في البحر، وصار غنيّاً منظوراً أورث أبناءه ثروة كبيرة».

تاريخ شفهي يدعمه بوثائق ولا تجده في كتاب، وعرفت من أين يأتي وليد مالك بأخباره، وقد حجب عنّي مصدره.

وهو يذكر بالتفصيل وقائع وصول ابراهيم باشا إلى المدينة. وكانت المراسلات بلغت المدينة قبل وصوله: «بعد السلام التام، المنهي إليكم أنه أمس تاريخه يوم الأحد المبارك قد هجمت عساكرنا المصريّة الظافرة بالقوّة والسطوة القاهرة على عكّة المندكّة، وبالحال صعدوا إلى أسوارها

وتملّكوها... فلأجل إعلان هذه البشرى الموجبة السرور والأفراح إلى الجميع، حررّنا لكم مرسومنا هذا من ديوان عكا.

إبراهيم باشا»

وقرأ حسن البدوي المرسوم وأعلنه على الناس، ففرحوا واستعدّوا لاستقبال القائد المظفّر، واجتمعوا عند بركة الملاحة التي ملأوها بعصير الليمون ووزعوا الشراب على الناس. وعند وصول الباشا هبّوا لاستقباله عند بوابة المدينة الجنوبية وساروا خلفه ومعه حنّا البحري وقادة العسكر. لكن ابراهيم باشا لم يفعل سوى أنه استبدل ظلماً بظلم أعتى وسلّط البحري على رقاب الناس. وأخذ أبناء الناس إلى حروبه التي لا تنتهي. وأهان العلماء وأبناء البيوت القديمة، فصبر الأهالي، ثم ثاروا وانتفضوا فعلّق ابراهيم باشا المشانق وأعدم خيرة شباب المدينة عند بركة الملاحة، وكاد حسن البدوي أن يكون في عداد المعلّقين على الأعواد لولا أنه فرّ في المراكب إلى فماغوستا ومنها إلى عاصمة الدولة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. ومضت السنوات حتى أجلى عسكر الدولة المنصور الجيوش المصرية فرجع مع العائدين إلى مدينته التي أعلنت الأفراح بعد الأتراح، فعُلّقت الزين ووزّع الشراب في الأسواق.

لكنّ الزمن ما كان ليعود إلى الوراء، وشعر حسن البدوي، العائد بعد غياب، أن مدينته فقدت روعة عزلتها الأبدية، فها هي الأساطيل عند شواطئها، والقناصل يجولون في أسواقها، ويتدخّلون في شؤونها، والأدهى أن نظامها الشرعي بدأ بالاختلال وظهر التلاعب بالقواعد

والأصول. وحين عادت الدولة العلية لتصلح ساهمت في اتّساع الرقع وفي اختلال القواعد وتفشّي الفساد، باسم القانون:

«بمقتضى الأمر السامي الوارد من جانب الباب العالي، فالدعاوى والمنازعات التي تتوقّع بين البعض بخصوص جميع المحلاّت والأراضي والمسقفات التابعة أوقاف حضرات السلاطين العظام والوزراء الفخام وساير الأوقاف، إن تكن كلّية أو جزئية، وتصير رؤيتها بالمحاكم الشرعية، فالذين لا يكون موجود بيدهم حجج عتيقة، ويدّعون بها بموجب أخبار الشهود، لا تصير المسارعة بإعطاء سندات التملّك لهم، بل ينبغي حضور ناظر عموم الأوقاف ويصير تحقيقها بالأطراف».

وسبّب الأمر منازعات لا تنتهي، فلا يمرّ عهد إلا وتزداد الأمور سوءاً، فحلّت المصائب بالمدينة، وتجرّأ بعض من أهلها على القواعد القديمة، واختلّ نظام عيشها، وصار سافلها عاليها.

لكن مدينة حسن البدوي تتمكّن في كل عهد ومحنة من الحفاظ على نظامها، بالرغم من تبديلها الرجال من الوجهاء والزعماء والعائلات والبيوت. وما كان يرويه لم يكن مجرّد أخبار وحكايات، بل تاريخ من صراع النظام والاضطراب، الأصول والفوضى، الشرف والخسّة...

قال: «دائماً، كان ثمّة رجال يتصدّرون، جاء حكّام ظنّوا أنهم سيخلّدون، ولكنهم رحلوا وانتهى ذكرهم، فحلّ مكانهم آخرون، جدّدوا سيرتهم فترحّم الناس على من سبقهم. فالظلم أساس الحكّام والحكومة والأمراء والولاة».

قال: «المدينة ترفع أشخاصاً وتعود لتخفضهم؛ تسلّم

إسماعيل بيك الأمور أيّام إبراهيم باشا، فصار أخوته وأبناؤه سادة الناس، يعودون إليهم في كل شاردة وواردة وتجبّروا وظنّوا أن عهدهم لن يزول، وعندما رحل الباشا ساروا في ركابه واختفوا كأنهم ما كانوا أبداً. ثم جاء عهد درويش آغا، فما كان أمر يتمّ إلاّ بإذنه، وتسلّط ابنه حسن آغا من بعده حتى ظنّ الناس أن عهده لن ينتهي، فحين حدث الانقلاب الدستوري، جُرِّد من سلطته وأملاكه فأشفق عليه الناس. ثم برز نجيب بيك البكري الذي تصدّر زمن الدستور وأيّام الفرنسيين، وجاء بعده سعد الأشرفي الكبير، فصار وجه المدينة والمتكلّم باسمها... يأتون ويذهبون وتبقى المدينة».

وسألته: «هل النظام ما زال أقوى من الزعماء والحكّام والعائلات؟». قال: «إسمع يا بنيّ، لقد تعبتُ، وتعبتْ المدينة، فقد قاومت منذ أن تسلّط عليها صغار الناس أيّام الآغوات، وما زالت. لكن اضمحلال نظامها بدأ منذ ذلك الحين، وما فتئ الاختلال يتّسع، منذ أن خرجوا من حاراتهم وفرحوا بهدم السور وإزالة البوّابات، واستقبال السفن الآتية من الغرب والقطارات القادمة من الشمال، ولم يتنبّهوا الى استشراء الفوضى وتقويض الشرائع. وستفرحون أكثر بزوال كل ما هو قديم، لكنكم ستعضّون أصابعكم ندماً حين يتلاشى النظام، فلا تعود المدينة مدينة ولا يبقى مكان...». وقال: «أيّامي معدودة، وأرجو ألا أرى ذلك اليوم قبل رحيلي».



الحفل واليافطات



I

أوراق كثيرة وكتب تراكمت فوق طاولتي. حين جئت لأجلس مبتدئاً نهار عمل، شعرت بفوضى الأوراق والملاحظات المدوّنة فوق قصاصات صغيرة، وقلت في نفسي: ومع ذلك فإن أشياء تنقص هذه المادّة المثقلة بتفاصيل الحاضر والماضي وانفكاكهما. إنها مزيج من يقين المسيري وشكوك شاتليه وغموض الوثائق وجلاء أخبار حسن البدوي؛ روايات لا أساس لها، وأخرى ثابتة كمعالم حجرية آتية من حقبات سابقة وراسخة كرسوخ المباني المستقرّة ما بين درب الصاغة وسوق العقّادين. تساءلت: أي بناء يمكن تشييده من هذه الموادّ المتراكمة أمامي، وأي تاريخ يمكن أن يُكتب، وأيّ صياغة يمكنها أن تدمج الرجال بالوقائع والمعالم والأمكنة؟

كنت أقلّب الصفحات أبحث عن نقطة البداية في هذا التاريخ، حين رنّ جرس الهاتف، وقد عرفت المتكلّمة لتوّي، نوال سريّ الدين التي قالت: «أرجو ألا أكون قد قطعت عليك عملك»، فأجبتها بدون تفكير طويل: «على

العكس من ذلك». وسألتني إذا كنت مرتبطاً بموعد أو عمل؟ قلت لها: «إنني أحاول أن أسيطر على أوقاتي». فضحكت ضحكة قصيرة وقالت: «ما رأيك أن آخذ جزءاً من وقتك؟». فأجبتها: «بكل سرور»، عندها سألتني إذا كنّا نستطيع أن نلتقي، فقلت: «بكل تأكيد».

اتّفقنا أن نلتقي في مقهى «الكاراڤان ماريتيم» الذي افتتح منذ بضعة أشهر، ولم يسبق لي أن زرته من قبل. كان خالياً من الزبائن في الحادية عشرة صباحاً. وقد وصلت قبلها ببضع دقائق. حين جلست كان البحر قبالة نظري، وفكّرت إذا لم أكن قد تسرّعت في قبول هذا اللقاء في مثل هذا المكان، وتساءلت: ما الذي تريده نوال سريّ الدين؟

حين دخلت باب المقهى جالت بنظرها سريعاً وتوجّهت صوبي. وبعد أن جلست رفعت النظارات عن عينيها ووضعتها على الطاولة، ثم فتحت محفظتها وأخرجت علبة سكائر. ولاحظت أنها قد قصّت شعرها، فبدت في قميصها الأزرق المخطّط أقرب إلى طالبة. قالت: «لحسن الحظّ أن الحرارة بدأت بالانحسار مع بداية شهر أيلول». ثم أشعلت سيكارة بانتظار القهوة التي طلبناها.

كانت راغبة في الكلام بدون أن تكون لديها عادة في ذلك، لهذا كان كلامها أشبه بعبارات منفصلة. فقلت في نفسي إنها رغبة عارضة. وحسبت أن صوتها المنخفض والبطيء دليل على أنها تدرّبت على الصمت أكثر من دربتها على التصريح. وحين قلت لها: «لم أرك تدخّنين من قبل»، شعرت أنها ارتبكت. وقالت إنها لا تدخّن، ولكنها تفعل ذلك بين الحين والآخر، وأخبرتني أن زميلاتها أيّام الدراسة كنّ يخبّئن علب السكائر بين كتبهنّ. وأن أوّل سيكارة

دخّنتها كانت في سنتها الجامعية الثانية وقد شعرت يومها أن رائحة الدخان قد رافقتها طوال النهار. ثم أخبرتني عن أيّام الدراسة، وقالت، إن أجمل أيّامها هي التي قضتها في الجامعة، ثم سألتني عن دراستي الجامعية، ولماذا اخترت دراسة التاريخ، فقلت لها إنني لم أدرس التاريخ، بل الفلسفة، فتطلّعت مستغربة وسألتني: «ما الذي أوصلك إلى الاهتمام بتاريخ المدينة؟». فقلت: «لا أدري، لعلّني أبحث عن شيء يخصّني في هذا التاريخ ولا أعرفه». وأضفتُ بعد صمت قصير: «وأنت، أين وصلت في بحثك عن آثار المدينة، لقد تذكّرتك حين عثرت على دراسة عن آثار المدينة السابقة للمماليك. وفكّرت أنك لا بدّ ستهتمّين بها».

لم تجب. وبعد لحظات من الصمت شعرتُ خلالها ببعض الحرج لأنني لم أستطع أن ألفت انتباهها، تابعتُ قائلاً: «الآثار ميدان واسع يحتاج إلى خبرة طويلة». شعرت مرّة أخرى بأنني أخطأت في صياغة عبارتي. لكنّها علّقت قائلة: «لقد ضجرت من الآثار».

ارتسمت على وجهها ملامح الكآبة وقالت: «لقد ضجرت من آثارهم وتراثهم. إنهم يعيشون في الماضي ولا يريدون أن يغادروه أبداً»... وتطلّعت نحوي وقالت: «وأنت، ما الذي يهمّك من هذا التاريخ والآثار والروايات التي لا تنتهي؟».

لم تنتظر إجابتي، إذ عادت تسألني: «ألا تقرأ شعراً؟». فأجبتها: «قرأت شعراً كثيراً في ما مضى، أما الآن فإنني قلّما أفعل»، وسألتها بدوري: «وأنت هل تقرأينه؟»، فأجابت: «صحيح، لقد قرأت الشعر حين كنت في المدرسة، وكذلك حين صرتُ في الجامعة، ولكنني انجذبت

إلى قراءة الروايات»، وتابعت: «كنت أنوي دراسة الرواية الفرنسية، لأنني شغفت بكل الروائيين من فلوبير إلى ناتالي ساروت، وأردت أن أعدّ رسالة عن الرواية الجديدة».

توقّفت عن الكلام وتطلّعت إلى البعيد كأنها تنظر في أحوال نفسها، ثم حوّلت نظرها صوبي، فلاحظت اتّساع عينيها وقد غادرتها الكآبة، وابتسمت قائلة: «لقد بدأت بكتابة رواية ولكنني لم أكملها».

قلت محاولاً أن أشاركها أفكارها: «لا بدّ أنك بطلة روايتك؟». فأجابت: «لا، هناك شخصية تشبهني ولكنها أكثر جرأة منّي»، وتطلّعت مرّة أخرى إلى البحر وقالت: «البحر جميل وواسع، لا يشبه المدينة وشوارعها وضجيجها ولكنه مخيف».

ساد الصمت من جديد، وخشيت أن أقطع عليها تأمّلها، ولكنها سألتني: «وأنت ألاّ تقرأ الروايات؟»، قلت: «بكل تأكيد، وإنني أرغب الآن بقراءة روايتك التي لم تكمليها». فقالت بعد تردّد: «ربما أطلعك على أوراقي في المرّة المقبلة».

تهيّأت صبيحة يوم الأحد قبيل منتصف أيلول لمغادرة المنزل، قاصداً مقرّ جمعيّة الثقافة الأهلية لحضور الاحتفال بذكرى كامل محرّم. مشيت في شارع المدارس الهادئ، فحسبت المدينة تصحو متثاقلة غير آبهة بما يدور في أرجائها. وصلت إلى مبنى الجمعية وصعدت السلّم ببطء فيما كان عدد من المدعوّين يصلون ويصعدون إلى الطابق العلوي حيث القاعة الواسعة التي صُفّت فيها الكراسي استعداداً للاحتفال. لمحت المحامي توفيق عبدالله وقد بدا عليه الانشغال، فهو الذي سيقدّم المتكلّمين الذين سيعتلون

المنبر. وكان ابراهيم شيبان قد وصل وظهرت على وجهه ملامح الاضطراب. وكان ثمّة كثير من المدعوّين قد أخذوا مقاعدهم في الصفوف الأماميّة، ووقفت لا أعرف ماذا أفعل. فشغلت نفسي بتأمّل لوحة تمثّل مشهداً للمدينة، كنت عادةً ما أمرّ بها عند مجيئي إلى قاعة المكتبة، فشعرت كأنني أراها للمرة الأولى. كنت أحدّق في بعض التفاصيل وأعيّن بعض المواقع داخل الإطار الذي تحتلّه اللوحة، حين اقتربت مني صبيّة، ومدّت يدها مصافحة، وقالت: «ألم تعرفني؟ أنا نادية بنت سعيد التيّان»، وأضافت: «لقد زرتنا مرّة في المنزل!»، قلت: «طبعاً»، وسألتها عن صحّة والدها؟ قالت: «إنه بخير، كان ينوي الحضور اليوم، لكنه شعر بتوعّك، فوعدته أن أحضر بالنيابة عنه».

قلت لها: «كان ينبغي أن أعود لزيارتكم، لكن المشاغل أخّرتني». فأجابت: «لا بدّ أن والدي سيسرّ بزيارتك»، وأضافت: «لكنه انتقل الآن للسكن في منزل أخي في شارع المعرض».

كانت المقاعد في القاعة قد امتلأت بالحضور، حين حضرت هند الأشرفي ومعها ابنها يرافقهما أمين سريّ الدين، وقلت في سرّي: لن تحضر نوال؟ في هذه الأثناء لمحت وليد مالك فتقدّمت صوبه، وسألني لتوّه: «ألن تجلس؟»، فاتّجهنا صوب المقاعد الخلفية.

II

هبطت السلّم مع وليد مالك وغادرنا مبنى الجمعية صامتين. وسرنا دون اتّفاق مسبق في الساحة العامّة، بعيد

ظهر يوم الأحد، وكانت الحركة تصنع في أرجائها هيئة أيّام العطل. وتابعنا سيرنا في ذات الاتّجاه الذي كان يتبعه خطّ الترام الذي دشّن عهد الحداثة في المدينة. ثم انعطفنا ناحية ساحة السرايا التي قادت خطواتنا البطيئة باتّجاه شارع الأفغاني بمبانيه التي بدا على واجهاتها الهرم، وكانت ذات يوم تفتتح عهد الحداثة، ومررنا أمام منزل كامل محرّم وعبرنا الرصيف الخالي صامتين حتى وصلنا إلى التقاطع الذي يقود إلى المعهد العلمي، وفكّرت: إننا نتقاسم الرغبة في المرور أمام الصرح الذي كان في ما مضى علامة على وحدة المدينة وعقدة آمالها. وكان المبنى لا يزال واقفاً، بالرغم من إقفال المعهد منذ سنوات وبالرغم من أن الأبنية السكنية والدكاكين قد حاصرته من جميع الجهات ما عدا الغربية. قال لي وليد: «قريباً سيهدم المبنى، فقد بيع لمجموعة من المتموّلين الذين يفكّرون بإقامة بنايتين للمكاتب مكانه».

سرنا في الشارع الذي يقوم فيه محلّ «فوتو سميراميس»، وهو الشارع الذي يفصل المدينة القديمة عن امتدادها الحديث، وتابعنا السير في ساحة تقفر فيها المدينة من العابرين حتى وصلنا إلى تقاطع مدرسة الشدياق، فانعطفنا ناحية شارع المطابع، التي اندثرت كل علامة تذكّر بزمنها وصحفها والرجال الذين يكتبون عن الآمال والوعود، فيطبع حبر المطابع كلماتهم التي تخرج صباح كل يوم. ودخلنا في جلبة السوق التي كانت تخفت تدريجياً كلّما توغّلنا في الأزقّة الداخلية للمدينة. صعدنا الدرج الذي يفضي إلى طلعة مزار الرفاعي، فبدت جدران القلعة جاثمة فوق المدينة. قال لي: «سنأخذ طريقاً مختصرة»،

قلت: «لدينا متّسع من الوقت». وتابعنا سيرنا صعوداً حتى وصلنا باب القلعة فدخلنا بدون أن ننطق بكلمة حتى صرنا عند أعلى جدارها المطلّ على المدينة التي خرجت من البوابات وتخطّت الأسوار في كل الاتّجاهات. وكان ثمّة رجال ونساء أشبه بالسيّاح يلتقطون صوراً تذكارية. هبطنا القلعة وسلكنا درباً غير الذي صعدناه، ونزلنا باتّجاه السوق فلم نبلغه إلا بعدما عبرنا الزقاق المسقوف الذي أفضى بنا إلى وسط السوق الذي كان يودّع آخر زبائنه. ومن هناك تابعنا سيرنا باتّجاه ساحة الدويدار، وكان الأولاد يلعبون في أطرافها غير آبهين بالاستعدادات التي تجري عند طرفها الشرقي. كانوا علّقوا اليافطات وصفّوا الكراسي وأعدّوا المنبر، قال لي: «لن يبدأوا قبل الساعة الرابعة بعد العصر». ولم يطل الوقت حتى بدأوا يتوافدون، صبيةً وشباباً وكهولاً، كأنهم عائدون من نزهاتهم الشاحبة فشغلوا أنحاء الساحة حين أخذت مكبّرات الصوت تعلن عن اقتراب بدء الحفل. وشغلوا لحظات الانتظار بإذاعة الأناشيد فلم يأبه الأولاد الذين واصلوا لهوهم، يستفيدون من الوقت الذي يفصلهم عن هبوط الظلام.

كان الظلام يلفّ أرجاء المدينة حين رجعت إلى منزلي، سرت في الشارع الذي ينيره مصباح وحيد، وسمعت وقع أقدامي. وحين دخلتُ المنزل أنرت الضوء، فبدت لي الأوراق المتراكمة فوق الطاولة. فقلت في نفسي: سأتركها حيث هي، لا بدّ أن أعود إليها في وقت لاحق.

المحتويات

للمؤلف

□ اكتشاف التقدّم الأوروبي
المؤثرات الفرنسيّة على العثمانيّين خلال عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧)
دار الطليعة، بيروت ١٩٨١

□ تطوّر النظرة الإسلاميّة الى أوروبا
معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٣

□ الصورة التقليديّة للمجتمع المديني
قراءة منهجيّة في وثائق محكمة طرابلس الشرعيّة
منشورات معهد العلوم الاجتماعيّة، الجامعة اللبنانيّة، طرابلس ١٩٨٣

□ أركيولوجيا المصطلح الوثائقي
منشورات معهد العلوم الاجتماعيّة، الجامعة اللبنانيّة، طرابلس ١٩٨٦

□ كاتب السلطان، حرفة الفقهاء والمثقفين
منشورات رياض نجيب الريّس، لندن-بيروت ١٩٩١

□ يوم الجمعة، يوم الأحد
دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٤ (الطبعة الثانية ١٩٩٦)

□ حارات الأهل، جادّات اللهو
دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٥ (الطبعة الثانية ١٩٩٦)

خالد زيادة

بوّابات المدينة والسّور الوهمي



ليست إلا منازل ومقاهي ومباني لا يعيرها العابرون أي اهتمام، كانت
ها أدوارها في ما مضى... يروي هذا الكتاب سيرة الأمكنة بعلاقتها مع
قصائد والأفكار والرجال؛ واكتشاف أهل المدينة لتاريخهم الذي لا
نفكّون عن إعادة صياغته.

خالد زيادة، أستاذ جامعي من مواليد طرابلس وسفير لبنان لدى جمهورية
مصر العربية. صدرت له عن «دار النهار» ثلاثية طرابلس:
يوم الجمعة، يوم الأحد (١٩٩٤)، حارات الأهل جادات اللهو (١٩٩٥)،
بوابات المدينة والسور الوهمي(١٩٩٧).
كما صدرت له رواية تاريخية بعنوان حكاية فيصل (١٩٩٩).



ISBN 978-9953-74-195-6